٩٥٦,٩٠٤١

مكسيم رودنسن

إسرائيل، واقع استعماري

ترجمة : إحسان الحضني

مراجعة : انطون مقدسي

مكسيم رودنسون

إسرائيل، واقع استعماري

ترجمة: إحسان الحضني

مراجعة: انطوان مقدسي

مكسيم رودنسون
★ إسرائيل، واقع استعماري ★

مكسيم رودنسن

إسرائيل، واقع استعماري

ترجمة : إحسان الحضني

مراجعة : انطون مقدسي

مكسيم رودنسن
★ إسرائيل ، الواقع الاستعماري ★

إسرائيل، واقع استعماري

مكسيم رودنسن عالم اجتماعي بارز ومستشرق نابه يشغل حاليـاً منصب مدير الدراسات في معهد الدراسـات العليـا (السوربون) . وهو من اليهود الاحرار الذين ساءهم ان يسخر الدين اليهودي لمآرب سياسية ملتوية وراءهم ماتضمنته الدعوة الصهيونية من زيف ومغالطة وتضليل . وما لحق بالعرب بسببها من ظلم واذى وتقتيل وتشريد فتعالت صرخاته تدين وتستنكر وتفضح . وهو في هذه الدراسـة يتناول حقوق اليهود التاريخية المزعومة في فلسطين ويفندها باسلوب علمي رصين فتتهاوى ثم ينتقل الى طبيعـة الصهيونية الاستعمارية وارتباطها بالحركة الامبريالية الاوربية — الاميركية فيأتي بما يثبت ذلك بشكل قاطع وينتهي الى تبرير ثورة العرب وكفاحهم لاسترجاع بلدهم السليب وحقهم المضيم .

المؤسسة العربية للطباعة والنشر
مطبعة الناصر
شارع الحريري رقم ٥ — القدس
مقابل نادي الموظفين

سعر النسخة
٩ ليرات

ولم تعتبر هذه التهمة ، من جهة اخرى ، شائنة إلا من قبل اليسار الاسرائيلي الصهيوني . وهي لاتثير عند اليمين سوى ضيق تشتد حدته اوتخف حسب تحسس الافراد او الفئات بانتشار الايديولوجية المناهضة للاستعمار في العالم . زد على ذلك ان هذا الموضوع قد اكتسب اهمية بالغة في ميدان العلاقات السياسية الدولية وفي نطاق الدبلوماسية . وانه لعلى جانب عظيم من الاهمية تجاه الجمعية الدولية (هيئة الامم المتحدة) وفي العلاقات مع البلدان الافرو ـ اسيوية ان تصنف اسرائيل في المعسكر الامبريالي الاوربي او ان تبرأ من هذه الوصمة .

وينبغي ان نذكر ايضا ان المشادة الحالية على مستوى الدول قد سبق ان تمثلت (كغيرها من النقاط العديدة) في المناقشات النظرية والاستراتيجية والتكتيكية داخل الكومنترن . ويمكن ان نعثر في ميدان اخر على خطوطها الاولى ، في المشادات التي لاتقل عنها شدة والتي قامت منذ الاف السنين بين اليهود المسكونيين واليهود القوميين باوسع معاني هذه الكلمات .

ويحار المرء في الانتقاء من بين التأكيدات العربية . فها هو ناصر في كتابه « فلسفة الثورة » يحكي افكاره كضابط في الثلاثين من العمر عند عودته من حرب فلسطين :

« لقد كان ذلك كله على توافق طبيعي مع الرؤيا التي رسمتها

في ذهني التجربة . (فالشرق العربي) يشكل منطقة واحدة تعمل فيها الظروف نفسها والعوامل نفسها وحتى القوى نفسها المتألبة عليها جميعاً . ومن البديهي ان تكون الامبريالية ابرز هذه القوى . ولم تكن اسرائيل ذاتها سوى نتيجة من نتائج الامبريالية »[١]

هو ذا الان التشخيص الذي رآه احد الشيوعيين اللبنانيين قبل حرب فلسطين مباشرة :

« ليست الحركة الصهيونية سوى أستغلال عواطف شعب منكوب لخدمة مصالح الرأسماليين اليهود المرتبطين باهداف الامبريالية في الشرق العربي ... لقد انجر الصهاينة ببؤس شعبهم مقابل مشروع تجاري ومرتكز استعماري »[٢]

ولم تنتج السنوات الماضية سوى دفع القوى العربية الثورية الى توسيع هذا التشخيص بربط الصهيونية بالنظام الامبريالي العالمي . واكد مشروع الميثاق الوطني الذي تقدم به الرئيس جمال عبدالناصر الى المؤتمر الوطني للقوى الشعبية في مصر : « ان تصميم شعبنا على وضع حد لتصرفات اسرائيل العدوانية في جزء من الوطن الفلسطيني يعدل التصميم على تصفية جيب من اخطر الجيوب في المعركة

(١) فلسفة الثورة ، القاهرة دار المعارف (مجموعة « اخترنا لك » ٣) ص ٦٩ .

(٢) رئيف خوري « القضية الفلسطينية » (مجلة الطريق ، بيروت ، ٣١ اذار ١٩٤٦ ص ١ ـ ٥)

الاستعمارية ضد حرية الشعوب . وليست سياستنا التي تقضي بتعقب التسلل الاسرائيلي الى افريقيا سوى محاولة للحد من انتشار سرطان امبريالي مميت » [1] .

وهذا المفهوم عن اسرائيل كعميل امبريالي متعدد السيور قد وسعه بشكل خاص فيما يتعلق بتسللها الى افريقيا مثلاً ، مهدي بن بركة في الندوة العالمية التي عقدت في القاهرة من ٣٠ آذار الى ٦ نيسان ١٩٦٥ لبحث قضية فلسطين [2] .

وهكذا ، فاسرائيل في نظر العرب قاعدة إمبريالية اقامتها في الشرق الاوسط الامبريالية البريطانية بالاتفاق مع امبرياليات اخرى . وهي جزء من النظام الامبريالي العالمي . ونشاطها في العالم هو منذ الآن من الطراز الامبريالي سواء أكان لمصلحتها الخاصة أو لحساب الامبرياليات الاوربية والامريكية . هذا هو على الاقل التصور الاكثر شيوعاً وقد اقترحته اوساط اليسار واخذ به على نطاق اوسع بكثير . ومن الطبيعي ان تكون هنالك درجات عديدة في طريقة تقبل هذه الصورة او تمثلها [3] . والحد الأدنى من هذه الدرجات

---

(١) مشروع الميثاق ٢١ ايار ١٩٦٢ . القاهرة . مصلحة الاستعلامات ص ١١٩

(٢) الاهرام ٢ نيسان ١٩٦٥

(٣) حاولت على الاقل ان ادل على هذه الدرجات في مقالي «العرب واسرائيل» (مجلة العلوم السياسية الفرنسية الجزء ١٦ عدد ٤ آب ١٩٦٦ ص ٧٨٥ – ٧٩٧) .

الشعور بالمهانة النازلة التي فرضها عنصر غريب تسانده قوى العالم الاوربي – الامريكي العاتية .

وقد اقبل المؤلفون الصهاينة والمناصرون لاسرائيل على تفنيد هذه الاتهامات . فألحوا على الطبيعة الاشتراكية للحركة الصهيونية والقوا في الظل ، ما امكنهم ، هرزل والمنظمة الصهيونية الرسمية وركزوا على كل مايتفرع من الايديولوجيات الاشتراكية في الوضع الاسرائيلي الحالي . وألحوا على اهمية افكار بيير بوروخوف (١٨٨١ – ١٩١٧) الصهيوني الماركسي الذي ثار ضد المنظمة الصهيونية وفسر التاريخ اليهودي بتعابير الصراع الطبقي مشيداً بالبروليتاريا اليهودية التي لاسبيل الى ان تحقق انتصارها الا في فلسطين . وابرز الى جانب هذا التيار فكر هارون دافيد جوردن (١٨٥٦ – ١٩٢٢) الاشتراكي التولستوي الالهام ، وقد مجد قيمة العمل وانهى أيامه في كيبوتز دجانيا . وبينوا كيف تجسدت الآراء التي اطلقها هؤلاء المفكرون الاشتراكيون ، من ماركسيين وغيرهم ، في حركات قوية اسهمت اسهاماً كبيراً في توجيه موجات المهاجرين اليهود في فلسطين وفي اعمالهم البناءة . واعتبرت المستعمرات اليهودية الجماعية الى حد ما كما اعتبرت المؤسسات التي نمت حول الشبكة التي تؤلفها هذه المستعمرات كثمرات مشخصة لهذه الحركة الايديولوجية وابرزت كنماذج لمنجزات اشتراكية . والخلاصة الضمنية هي أن مجتمعاً

ينفذ فيه الخبير الاشتراكي الى هذا العمق لايمكن ان يوصف بأنه استعماري او امبريالي .

ولكي يزيدوا من ابراز هذه السمة الاشتراكيـــة في اسرائيل يصورون بالمقابل العالم العربي كاقطاعي في البـدء وفاشي جزئياً في الوقت الحاضر . وبذلك يكون الصراع في المجتمعين ، خلافاً لوجهة النظر العربية ، صراع قوة تقدمية اشتراكيـة ثورية ضد اسوار من التخلف ومن الرجعية الاجتماعية . وكان من اكثر ممثلي وجهة النظر هذه تطرفاً عربي اعتنق الصهيونية وهو عبد الرزاق عبد القادر سليل الامير الجزائري العظيم .وقداستقبل اليسارالفرنسي كتابه الذي نشره فرنسوا ماسبيرو بحماسة[1] .

ويوضح بعضهم ان دولة اسرائيل البعيدة عن ان تكون نتيجة أي موجة امبريالية ،قدقامت من خلال صراع ضد الامبريالية البريطانية . وهذا الصراع هو الذي سيسجل في سجـل حركة التحرر الكبرى في عصرنا لاصراع العرب في سبيل الاستقلال . بل انه هو الذي حرك الحركة العربية . وكتب روبير مزراحي: « ان الاسرائيليين الجدد

(١) عنوان الكتاب « النزاع اليهودي العربي ، اليهود العرب امام المستقبل » نشر بالفرنسية في باريس ، ماسبيرو ١٩٦١ (مجموعة « الدفاتر الحرة » رقم ٢٠ – ٢١) . وقد نقدته نقداً طويلا ومفصلا في مجلة « الحقيقة – الحرية » الفرنسية في العددين ١٦ و ١٧ شباط وآذار ١٩٦٢ .

بتحقيقهم انسحاب الجيوش البريطانية خارج فلسطين وباعلان الدولة اليهودية المستقلة قد بشروا بحركة تحرير امامية ستصبح ، على حـد سواء ، تاريخهم وتاريخ عرب حوض المتوسط . فلو بقي الانكليز في فلسطين لما تركوا مصر ولو انتصروا على الاسرائيليين عام١٩٤٨ لما طرد كلوب باشا من الاردن[1] ». ويضيف الكثيرون ان هـذا الاستقلال قد تم بمساعدة البلدان الاشتراكية ، اسهمت فيه اسلحة تشيكية وكان خطاب غروميكو في هيئة الامم (وكثيراًماستشهد به) مقدمة لتحويل جزء من فلسطين الى دولة يهودية كما كان الاتحاد السوفياتي اول من اعترف بهذه الدولة .

ويلحون ايضاً على بعدها عن مقاييس الاستعمار المألوفة . وقد كتب اتحاد الطلبة اليهود في فرنسا جواباً على كلمتي في التضامنيـة (Mutualité) في ٤ آذار ١٩٦٤ .

« لا أثر في حركة الاستيطان اليهودية في فلسطين لأي عنصر من العناصر التي يتميز بها الاستعمار كالعسكريين الذين يدعمون المبشرين لفتح الطريق للتجار والتمكين من استغلال عمل المستعمَر .

اما عن الوطن الأم ، فهنالك يهود يطردون من بلد الى بلد في اوربا وأما عن الجنود فهناك بروليتاريون ومثقفون سلاحهم المعاول .

(١) مقال روبير مزراحي « الاسرائيليون والعرب والارض » مجلة الازمنة الحديثة الفرنسية العدد ١٤٧ – ١٤٨ ايار – حزيران١٩٥٧ ص ٢١٨٣ – ٢٢٠٩

اما عن التجار (يهود = تجار ؟) فلا وجود لهم وأما عن المبشرين فمن الأحسن التذكر بأن الصهيونية كانت حركة علمانيـــة تستوحي الاشتراكية (كبوروخوف مثلا)[1] » .

وتضاف اخيراً الى هذه الحجج المنصبة خصوصاً على ملهم الحركة الصهيونية ودولة اسرائيل وعلى اصلها مـــلاحظات عن العلاقات الداخلية بين المستوطنين اليهود وعرب فلسطين . فشراء الأراضي العربية وهو الأساس الذي قامت عليه دولة اسرائيل لم يكن ابداً اغتصاباً، حسب رأي روبير مزراحي الذي يسهب كثيراً في بسط هـــذا الموضوع [2] . ولربما امكن القول على المستوى الأخلاقي العام « كما يقول روسو وماركس ان الأرض لمن فلحها (ص ٢١٨٦) » . غير أن الأمر كان بشكل محسوس على عكس ما كان عليه في الجزائر حيث « كانت الأراضي الطيبة مزروعة كلها عند وصول الفرنسيين . أما في فلسطين فلم يجد المستوطنون اليهود الا أراضي بوراً وصحارى (ص ١١٧٠) . وعلى كل فقد كان للعرب علمهم اذا لم يفلحوا اراضيهم فقد بقوا اربعة قرون واقعين تحت سيطرة الاقطاع التركي الذي كان يستغلهم على الطريقة الاستعمارية

(١) جريدة فرانس اوبسر فاتور الفرنسيـــة ٢ نيسان ١٩٦٦ ص ٨ ومايليها .

(٢) المقال المذكور آنفا نفسه .

(٢١٩٤) . « وكانت معظم الأراضي المبيعة في حوزة ملاكين غائبين » سواء كانوا « ملاكين اتراكا مقيمين في تركيـــا او في سورية » أم من كبار الاقطاعيين العرب واكثرهم سوريون (٢٢٠٣) » اعني بعيدين عن البلاد . « من المؤكد انه كان بين من باعوا اراضيهم لليهود ملاكون صغار من العرب ايضاً » ولكنهم ، وقد كانوا «مرهقين بالضرائب والالتزامات والايجارات» و « بدون امل » في اراضي جماعية تقسم اسهماً ويعاد توزيعها كل سنتين [1] ، رأوا في دراهم البيع الشيء الوحيد الذي يمكن ان يتيح لهم ان يطوروا اساليبهم (ص ٢٢٠٤) . ولم تكن الاراضي المشتراة باثمان مرتفعة جداً سوى جزء من الاراضي القابلة للزراعة (لقد كان

(١) ان في هذا كله تشويشاً وتعميات مبالغاً بها . لنذكر فقط ان فلسطين قبل الحرب العالمية الاولى كانت جزءاً من سورية جغرافيـــاً . ولنذكر تقرير القائد الصهيوني الشهير ارتور ريبان عن امكانات المنطقة الاقتصادية وعنوانه سورية كمنطقة اقتصادية - Syrien als wirtschafts gebiet (الطبعة الثانية . برلين ـ فيينـــا ، ب . هارز ١٩٢٠ ؛ الطبعة الاولى صدرت في ١٩١٧) وكان هدفه آنذاك بالتأكيد التمهيد لاستعمار فلسطين . ليست المشاعية الريفية مع تقسيم الحصص الدوري هي « النظام العثماني للملكية » ولكنها نوع من التصرف العرفي . وتنقصنا الاحصاءات عن مدى انتشاره . وهذا النظام حسب ماذكر ريبان (الكتاب المذكور ص ٤٣) بدأ يتفكك وقامت الملكية الخاصة في عدد من القرى في سورية . ان الفكرة التي كررتها الدعاية الصهيونية الف مرة والتي تقول ان فلسطين كانت في بداية القرن العشرين صحراء هي فكرة خاطئة تماماً .

الامم قد افادتا بشكل خاص تسلح اليهود (١)

وبجمل القول وبدون الدخول في تفصيلات الاتهامات الغامضة المتبادلة المستبهمة ، ان سير الحرب كما اتضح لم ينفع في ان يصرف العرب عن التفكير في ان امامهم مستعمرة قوية تساندها مجموعة الأمم الأوربية الامريكية . هنالك كان يقوم الوطن الأم الحقيقي لليشوف ويلعب دوره ، بعطفه اجمالاً عليها مطرحاً جانباً كل الخلافات الايديولوجية رغم جهود حكومتي بريطانيا واميركا في سبيل الحياد وادارة هيئة الامم وبعض المناصرين القليلين لقضية العرب في اوربا واميركا وهم عناصر مشبوهة جداً في بلادنا ومكروهة حقا .. ولذا فان العمل العسكري العربي لم يجن اي فائدة عملية من هؤلاء بينما افاد العمل الاسرائيلي فائدة جلى من مناصريه العديدين في الوطن الأم الجماعي .

ولم يتوفر في الوضع في اسرائيل ما يكذب هذا التحليل . فقد اعتبرت اليشوف — ولها الحق في ذلك على كل — ان الاقلية العربية الباقية على حدود الدولة طابور خامس بالقوة وانبثقت

(١) نحسن قراءة ذكريات الكولونيل ب. كاغان المفيدة عن هذا الموضوع « معركة سرية لصالح اسرائيل » باريس . هاشت ٩٦٣ مع مقدمة ج. لارتيغي وكان من الممكن الاستغناء عنها فهي تقول فقط عكس ما يقوله المؤلف عن (المساعدة التشيكية) . كذلك ج و د. كمش Both sides ص ٢٠٤ ومابعدها .

تشريعات التمييز العنصري تجاههم من هذا الاعتبار (١)

نختتم هذا المخطط السريع . ان ترسخ سكان جدد من اصل اوربي في فلسطين العربية السكان قد تم بعد قيام حركة ايديولوجية اوربية وتحت تأثير فريق الضغط الذي يمثل هذه الايديولوجية . ووصلت هذه الحركة الى غايتها النهائية اي السيطرة على الارض التي كان يترسخ فيها المستوطنون بفضل وثيقة سياسية بريطانية هي تصريح بلفور التي اعطاها انتصار الحلفاء على الامبراطورية العثمانية وموافقتهم على القرار البريطاني قوة القانون الدولي ، ثم بفضل الحماية التي قدمها الانتداب البريطاني والتي اتاحت تشكيل قاعدة كافية ، واخيراً بنتيجة حرب موجهة في البدء ضد بريطانيا التي اصبحت صعبة المراس ثم ضد السكان الاصليين العرب يدعمهم ابناء جلدتهم . وقد ربحت هذه الحرب بسبب قوة شعور المواطنية عند اليشوف وتفوقها الطبيعي في استخدام التقنيات الاوربية في ميدان الاسلحة والتنظيم وبسبب قوة الضغط التي كانت تمتلكها في اوربا واميركا والشعور بالذنب الذي كان يلازم الاوربيين — الاميركيين حيال الجرائم التي اقترفها

(١) كتاب ولتر شوارز « العرب في اسرائيل » بالانكليزية لندن فابر وفابر ١٩٥٩ . وهو كتاب منصف في لهجته بشكل عجيب كتبه صحفي بريطاني قضى ثمانية عشر شهراً في اسرائيل متنقلا مع زوجته على ظهر حمار في المناطق العربية .

هنالك اذن اراض قابلة للزراعة !) وليس هنالك ابداً نزع ملكية العرب بشكل جماعي اذن .

واوضح اتحاد الطلبة اليهود في فرنسا : « ان الخاصة الاساسية والاصيلة للمجتمع اليهودي الفلسطيني قبل عام ١٩٤٨ هي انه لم يكن معتمداً ابداً على استغلال عمل المواطنين العرب . بل ان استثمار البلاد قد تم ، على العكس ، بالعمل اليدوي للتعاونيين وللكيبوتزيين اليهود . فأين اذن الاستعمار ؟ » . ويلح ر . مزراحي على الشروط التي يعطي بموجبها (الكيرين كاييت له اسرائيل) الصندوق الوطني اليهودي اراضيه . « ينبغي للمستأجر المؤقت ، في كل الاحوال ومهما كان الاسلوب ، ان يشتغل ارضه بنفسه لا ان يستثمرها بواسطة الآخرين من يهود او عرب . وهكذا ينتهون عن طريق الميتولوجيا التوراتية الى هذه النتيجة الثورية وهي منع استغلال الآخرين (ص ٢٢٠١) . على الأقل في أراضي الصندوق الوطني اليهودي (٣٠٠٠٠٠ هكتار من اصل ٨٠٠٠٠٠ هكتار صالحة حالياً للزراعة [1]) .

---

(١) لقد خلط مزراحي في حماسته الدفاعية الفرحة بين منع تغيب المالك ومنع استخدام المأجورين . وانني ارد القارىء الى الصهيوني آ . شوراقي الذي كتب « تنظم عقود الصندوق الوطني اليهودي بوجه عام وفق الأحكام التالية :

يلزم المزارع ان يشتغل الأرض بنفسه وان يستخدم من بين الرواد =

اذن فالفلاحون العرب الفلسطينيون غير مستغلين . وقد ارتفع ، بفعل استيطان اليهود ، مستوى حياتهم وقوتهم الشرائية ووضعهم الثقافي والتقني والصحي حتى انهم اصبحوا الآن في اسرائيل وعلى جميع المستويات في وضع احسن كثيراً من البلدان العربية المستقلة . وهذا مايبعد صورتهم عن صورة ضحايا بؤساء للاستعمار .

بماذا تعتبر اسرائيل واقعا استعماريا ؟

ان هذه المعركة القلمية المسعورة كلها التي خاضها الصهاينة وانصار اسرائيل ضد الصورة التي يرسمها العرب لاسرائيل وضد بعض الماركسيين مستوحاة بالواقع من رواسم (stereotype) ذات قوة نفسية هائلة . فالمستعمَر هو الكائن الجائع البالي الأثواب

= الاسرائيليين اليد العاملة الزراعية والصناعية الضرورية لاستثمار الارض » (كتاب دولة اسرائيل بالفرنسية باريس . دار النشر P. U. F ١٩٥٥ ص ٩٨) . كان المأجورون الزراعيون يشكلون عام ١٩٥٧ $\frac{٢}{٥}$ ملاكات الزراعة وهو معدل في مبيله الى التزايد اثر وجود نسبة ارفع منهم بين المستوطنين الجدد (كتاب ش . سيتون ، اسرائيل والاستيطان والتنمية « بالفرنسية » باريس ، كوجاس ١٩٦٣ ص ٢١٤) ووصلت فرنسا بدون الميتولوجيا التوراتية الى نتيجة ثوريتها ضعفا هذه النتيجة (على حد تعبير مزراحي) لأنه ليس فيها في ملاكات الزراعة من المأجورين سوى $\frac{١}{٥}$

الذي يملأ الرعب عينيه والمطارد الشقي الباحث بقلق عن اي بلغة . والمستعمر هو الوحش العسكري أو المدني الذي يلعب بخيلاء بعصاه ويتايل على محفة يجرها حمالون منهوكون اوهو ايضا رذل نصف مثل ينتهك الزنجيات الصغيرات . فكيف نتعرف في هـذا الى صورة هؤلاء العرب الأباة في اسرائيل الذين تظهرهم لنا النشرات الحكومية وهم يضعون علناً ورقة الاقتراع في الصندوق الديمقراطي أو تظهرهم وهم يشتركون بجد في جلسات مجلس بلدي ما ، من جهة ، و كيف نتعرف ، من جهة اخرى ، الى الكيبوتزي ذي الطلعة الصافية المستنير بالمثل العليا الذي يشتغل بيديه الأرض التي وطئها سليمان واشعيا ويسوع وقد تغلب على نقائص اسلافه الذين افسدهم المنعزل (ghetto) (١) وتخطاها ؟ وليس كل ماتبقى الا تعقيلا للثورة حيال القول بتماثل هذه الصور الشديدة التناقض والتي تحمل كلها مع ذلك قسطها من الحقيقة .

ويمكن تفهم هذا التمرد ولكن يجب ان نحاول تفحص القضية

---

(١) لنصف الروسم الكثير الذيوع والذي عبر عنه رسما الكاريكاتوري دوش وهو يمثل اسرائيل جاعياً كشعب بائس صغير ساذج يعمل خير مايستطيع ويهاجم الجميع بدون سبب . وهي صورة قريبة من صور فرنسا (حسب ميشليه وهوجو) كسند نزيه للقضايا العادلة صلبتها القوى المفترسة كنتيجة حزينة لمثاليتها الجوادة . وليس كل ذلك سوى اساطير ايديولوجية قومية .

بقدر اكبر من الجدية . ان نص اتحاد الطلبة اليهود في فرنسا الوارد اعلاه فيه آثار جهد موجه نحو المزيد من التصلب . ولكن المحاولات التي تكون من هذا الاتجاه غالباً ماتنزلق في المنحدر الحتمي تقريباً الذاهب من العقل الى «الواقعية» بالمعنى السكولاستيكي (المدرسي) للكلمة ذلك المعنى الذي يغذي كثيراً الرؤى الميتافيزيقية للواقع المشخص . انهم يحاكمون الأمر كما لو كان الاستعمار كائناً معقولاً او ذاتاً يمكن التعرف اليها مباشرة تحيط بها من اليمين ومن اليسار ومن فوق ومن تحت فواصل واضحة ويمكن التعرف اليها كما يستدل على النبات أو الحيوان بتعريف لالبس فيه . انها طريقة رائجة لم يتوصلوا بعد الى استئصالها وهي لاتنفك تضر بالعلوم الاجتماعية والأيديولوجيات التي تستحم فيها .

ليس هنالك استعمار وامبريالية بذاتها . بل هنالك سلسلة من الظواهر الاجتماعية تكشف عن تشابهات عديدة فيما بينها ولكنها تكشف ايضا عن فروق لانهاية لها غلبت العادة في ان يلصقوا عليها هذه السمة . في وسطها ، اذا شئتم ، نواة اجمع الملأ عليها اما في الأطراف فمنحدر لايلمح اختلفت فيه المصطلحات باختلاف الفئات والمدارس الفكرية والافراد ايضا . ومن هنا كانت التعاريف المتنافرة في المعاجم .

والصهيونية هي ، من جهة اخرى ، حركة ايديولوجية واسعة

المدى اصبح لها الآن تاريخ بعيد الاصول يمكن ان نعثر له ايضاً على مبشرين . ولقد كانت دائماً متعددة الاشكال وشملت نزعات كثيرة متنافرة كما نلحظ من اقل نظرة الى تاريخها المعذب الصاخب والى الشيع والانقسامات التي ولدتها والمعارك المستعرة في داخلها. زد على ذلك انه ينبغي لنا ان نميز كما نميز في كل حركة ايديولوجية المبادىء المثالية فيها ومتحولاتها تبعاً للنزعات الداخلية والتطور الزمني وبواعث الجماهير الموالية الضمنية والعلنية ومشروعات القادة الاستراتيجية والتكتيكية ومنجزات هذه المشروعات وهي دائماً جزئية ويتم بعضها في ظروف خفية ونتائج هذه المشروعات الخ . كل ذلك يفرض علينا تنويعات دقيقة عديدة اخشى هنا الا استطيع اظهارها الا بشكل مبتسرجداً .

ومع ذلك فتعداد الاوصاف الاجمالية ممكن . ومما لاينكر ان بواعث الجماهير التي تكونت منها قوة الحركة الصهيونية لم يكن لها إلا صلات قليلة ببواعث الرأسماليين البريطانيين الذين قام جوزيف تشمبرلن بتنظير مطامحهم الامبريالية . وكان المحرك الاساسي لهذه الجماهير هو اشمئزازها العميق حيال اوضاع التنكيل التي عانتها في روسيا القيصرية وفي اوربا الشرقية بشكل عام . وتمردها (وهو مبرر جداً) على هذه الأوضاع قد تجمع في سبل مختلفة حسب الفئات والافراد وبتأثير مكانتهم وتاريخهم الخاص . وقد كان لتأثير

الايديولوجيات السابقة (المتفاوت حسب اختلاف الحالات) دور رئيسي .

وازاء هذا الوضع المهين الذي فرض عليهم اختار بعض اليهود المندمجين النضال السياسي وربما الثوري في البلد الذي كانوا يشعرون بانهم من مواطنيه وقاموا بهذا النضال جنباً الى جنب مع انصار هذا الاختيار من غير اليهود وفي شعب يريدون ان يكونوا جزءاً منه . وحمل بعضهم على القيام بكفاح مماثل لكن بواسطة تجمع يهودي كالبوندبين مثلا . وعقد آخرون آمالهم على وطن آخر ، وطن يهودي صرف ضاربين بكل رابطة تربطهم بالشعب والبلاد والدولة التي احتضنتهم عرض الحائط . وتحديد مكان هذا الوطن كان بالنسبة للكثيرين امراً لا اهمية له . وقد لاحظ احد اليهود الفرنسيين وهو يقوم بتحقيق في بردتشيف ان اليهود المحليين لم يكن يهمهم معرفة ما اذا كان ورفاقه من الصهيونيين . انهم يسألون قبل كل شيء عما اذا كانوا مندوبين من وكالة الاعمار اليهودية (Jewish Colonization Association) التي تقيم مستعمرات يهودية زراعية في كل مكان وخصوصاً في امريكا. « الحقيقة ان فلسطين تجذبهم أقل من الهجرة[1]. »

---

(١) مقال ج . دي لاهاش وعنوانه « رحلة دراسة » نشر بالفرنسية في (مجلة دفاتر الاسبوعين الفرنسية السلسلة الخامسة الدفتر السادس كانون الأول ١٩٠٤ ص ٦٩ — ١١٦ .

ومع ذلك فان عدة عوامل كانت تعطي فلسطين المكانة المفضلة في احلام المستقبل .

فبالنسبة للمرتبطين بديانة السلف والذين لايقرون الاعتراض الديني على تحقيق الاهداف الالهية بطرق دنيوية محضة كان يجب الا تثير قضية تحديد مكان الوطن اليهودي اقل شك . ان التاريخ اليهودي كله الذي حافظت عليه الاجيال المتتالية بقراءة ودراسة النصوص المقدسة وتفسيرهـا وبالصلوات والأدب يعين فلسطين « البلد الذي اعطاكه يهوه إلهك بالوراثة » حسب ماجاء في سفر التثنية (Deuteronomique) ، هذا البلد الذي يجب ان تقوم فيه في آخر الازمان مملكة السعادة والغبطة ، مملكة المسيح المنقذ حول مدينة اورشليم (مدينة الملك الأعظم) التي يتبادلون فيها بعد كل وقعة فصح تمنيات التلاقي في السنة المقبلة . وقد حافظ كثيرون ممن ابتعدو نوعاً ما عن ديانة الاسلاف (مع تخلخل الايديولوجيات الغاربة المعتاد ، على تعلقهم بهـذا البلد الذي حمله اليهم تاريخ ثقافي راسخ . ولم يكن امام الاتجـاه القومي في الحركة الا ان يشجع التطور الايديولوجي الذي تلعب فيه قضية الوطن الوحيد الذي أقره اليهود كيهود عبر التاريخ دوراً اساسياً . وتبنى الاشتراكيون انفسهم من مار كسيين وتولستويين هذا التحديد طبعاً عندما اختاروا الاتجـاه نحو تجمع يهودي في وطن جديد . فالمجتمع الاشتراكي

اليهودي الصرف يجب ان يقوم في مكان ما ، واي منطقة تكون مؤهلة لايوائه احسن من المنطقة التي عينها التاريخ اليهودي كله ؟

لم يكن في بواعث هذا الاختيار ذاتها اي اتجاه استعماري او امبريالي . والعنصر الذي يمكن ان يربط تطلعات اصحاب الحوانيت والحمالين والحرفيين والمثقفين اليهود في روسيا وغيرها بكتلة المفاهيم الامبريالية هو تفصيل صغير يبدو وكأنه بلا اهميـة : لقد كانت فلسطين آهلة بشعب آخر . ومن المفيد جداً ان ننقب في الصحف والكتب لنعلم ماهي الافكار التي كانت تكونها الجماهير اليهودية عن سكان فلسطين الاصليين . لا مناص من ان تكون مبهمة الى حد بعيد وليس بينها وبين الواقـع الا واشجة بعيدة . زد على ذلك ان نزعة تحبيذ فلسطين (Palestinophilie) ، وكانت عند اليهود الروس في مرحلة التطلعات المثالية التي يُستَهْدَفُ تحقيقها في المستقبل البعيد ، بقيت بدون هدف سياسي واضح معلن وبالتالي بقيت غريبة عن القضية .

وقد قامت هذه النزعة الفلسطينية ، وهي رد الفعل اليهودي على موجة مناهضة السامية التي ثارت عام ١٨٨١ والتي دعاها سيمون دوبنوف « الركس الثاني[1] » ، على أفكار بسيطة . كتب هـذا

( ) كتاب س. م. دوبنوف وعنوانه التاريخ الحديث للشعب اليهودي Die neueste Geschichte des jüdischen volkes (١٧٨٩ - ١٩١٤) برلين Jüdischer verlag ، ١٩٢٠ — ١٩٢٣ ثلاثة مجلدات الجزء الثالث بالالمانية ، الترجمة الفرنسية . سيمون دوبنوف=

العالم المؤرخ (يهودي قومي معاد للصهيونيـــة) يقول : « اطلق ليلينبلوم وبنسكر ولوانداً ، بعدما خاب املهم في التحرر المدني ، الشعار التالي : اننا غرباء أينما كنا ولذا يجب أن نعود الى وطننا » . وكان هذا الجواب البسيط على عقدة القضية الوطنية نظرية شيقة بالنسبة للكثيرين ولكنها لم تنتج في الميدان العملي الا نتائج ضيقة . فجماهير المهاجرين الغفيرة لم يكن يتسنى لها ان تجد المكان الكافي على درب الاستعمار الفلسطيـــني الضيق الذي كان يراه الرواد والمتحمسون للفكرة . واتضح من هجرة بضع مئات من الناس الى فلسطين سنوياً بينما كان عشرات الالوف يتجهون الى اميركا في الفترة الزمنية نفسها ان الآمال بنقل مركز الشعب اليهودي ، شعب التشتت الى وطن تاريخي هي آمال لاتقوم على أساس »[2]

=« تاريخ الشعب اليهودي الحديث » باريس بايو ١٩٣٣ الجزء الثاني. ان الآراء الشائعة عن تاريخ مناهضة السامية والردود اليهودية عليها تتسم بأدنى ألوان الجهل حتى عند من يهتمون كثيراً بالقضية الفلسطينيـــة وينشرون الكثير حول هذا الموضوع . انهم يريدون ان ينقلوا الى الماضي الاوضاع التي قامت في العقود التي طبعتها الهتلرية بطابعها . راجع مثلا كتاب التبسيط الذي كتبه جيمس باركس عن بعث حركة المناهضة للسامية بعد ١٨٨١ وعنوانه « عدو الشعب ، اللاسامية » (An enemy of the people, Anti-semitism) نشر بالانكليزية في هارموندورث ، بنجوان بوكز ١٩٤٥ وسلسلة بنجوان رقم ٥٢١

(٢) س. م. دوبنوف الكتاب المذكور سابقا (النص الالماني) الجزء ٣ ص ٣٢٧ ومابعد .

وكانوا في مرحلة التطلع اما ان يحافظوا على عقيدتهم الدينية ويوكلون الى الله امر تحويل وجود بضعة رواد متفرقين الى مملكة مقدسة بشكل خفي واما ان يرجئوا القضية الى مستقبل غير محدد . ولم يكن التفكير في سكان البلاد الحاليين ليبلبل تلك الآراء المبهمة القائمة فقط على قضايا اليهودية والانتماء اليهودي . ولم يلفت الانتباه الى ان فلسطين ليست أرضاً خالية وان ذلك ليثير مشكلات سوى بعض المفكرين الصافين ومنهم مفكر « الصهيونية الروحيـــة » النظري احادها عام منذ ١٨٩١ [1] . ولكن صرخاتهم ذهبت بدون رجع . انها لامبالاة مبررة ومفهومة ، ولكنها تحمل بذرة المآسي المقبلة .

لقد كانت ، على كل ، مرتبطة بتفوق اوربا الذي يفيد منه حتى بروليتاريوها وأقلياتها المضطهدة . والواقع ان لامجال للشك في انه لو كان وطن الاجداد آهلاً باحدى الأمم المصنعة القوية البنيان التي كانت تهيمن على العالم آنذاك والتي توضعت منذ زمن طويل في احدى البقاع وانشأت فيها شعوراً وطنياً قوياً ، لو ان القضية كانت قضية نقل ألمانيين أو افرنسيين أو انكليز ليحل في قلب وطنهم عنصر جديد

(١) ان نصوص أحد هاعام واسحاق ابستين (١٩١٧) قد اوردها م. برلمان في « chapters of Arab - Jewish Diplomacy » (فصول من الدبلوماسية العربية اليهودية) المنشورة في « Jewish social studies » نيويورك . المجلد ٦ رقم العدد ٢ نيسان ١٩٤٤ ص ١٢٣ — ١٥٤ .

متماسك قومياً لكان الأمر لايخرج عن ان يكون من تصورات أشد الصهاينة جهلاً وأبأسهم .

ولكن التفوق الاوربي قد غرس حتى في ضمير اكثر الاوربيين حرماناً ان كل أرض خارج اوربا يجوز ان يحتلها عنصر اوربي . وقصة الطوبائية الصهيونية لم تكن تختلف جوهرياً ، من وجهة النظر هذه ، عن قصص الطوبائية الاشتراكية من طراز مجتمع كابث . فالمهم العثور على أرض خالية وليس من المحتوم ان تكون خالية بسبب غياب السكان فعلا بل ان يكون هنالك نوع من الفراغ الحضاري . انه يمكن بكل حرية ، على حد قول مترنيخ ، ان تقيم ، خارج حدود الحضارة وفي وسط سكان متأخرين نوعاً ما وليس ضد مصلحتهم ، مستعمرات اوربية . ولا يمكن لهذه المستعمرات ان تكون سوى اقطاب للتطور (اذا استعملنا تعبيراً حديثاً للدلالة على وضع سابق) . والامبراطورية العثمانية التي تقوم فيها فلسطين كانت تبدو على الأقل مزروعة ببقع فارغة حضارياً .

ويظهر هذا بأوضح الأشكال على المستوى النظري في مؤلفات المؤسسين النظريين للصهيونية السياسية . وقد لاحظ ليون بنسكر (١٨٣١ – ١٨٩١) الاندماجي الذي اعتنق اثر مذابح ١٨٨١ النزعة القومية اليهودية ، اندفاع اليهود الروس والرومانيين نحو فلسطين اثر تعذيبهم . « ومهما تكن هذه الاندفاعة خاطئة فذلك لايقلل من

تعبيرها عن غريزة الشعب الحقة ؛ لقد انتبه هذا الشعب الى انه ينبغي ان يكون له وطن[١] » . وقال : ان هذه التطلعات محقة في اساسها ولكن تحديد ملتقى آمال اليهود هو غير ناهض « لايمكن ان نحلم باعادة اسرائيل القديمة ولا يمكن ان نصل هناك ما انقطع وتهدم بقسوة من حياتنا السياسية . يجب ألا يكون هدف جهودنا « الارض المقدسة » بل « ارضنا » ولايلزمنا سوى ارض واسعة تضم اخواننا العائرين ، ارض تبقى لنا ولا يستطيع اي سيد غريب ان يطردنا منها . وقد يمكن ان نصبح « الأرض المقدسة » وطننا ، وهذا خير ، ولكن المهم قبل كل شيء ان نقرر اي بلد يمكن ولوجه[٢] » .

وينبغي ان يختار هذا البلد ، في الوجه الاول ، على اساس مزاياه الموضوعية « فالارض التي سنشغلها يجب ان تكون خصبة حسنة الموقع وعلى قدر من الاتساع كاف لاقامة بضعة ملايين من الناس . ويمكن الاختيار بين ارض صغيرة في اميركا الشمالية او اقطاعية يكفل الباب العالي والدول الاخرى على حد سواء حيادها[٣] » وتقرر هذا الاختيار لجنة من الخبراء . وربما وقع اختيارها

(١) ليون بنسكر كتاب التحرير الذاتي نقله الى الفرنسية ج شلوسنجر القاهرة ، الاسكندرية ١٩٤٤ (مجموعة « النصوص اليهودية » ص ٦٩ ومابعد) .

(٢) المرجع نفسه ص ٧٩ ومابعدها .

(٣) المرجع نفسه ص ٩٢ .

على فلسطين او سوريا اذا كان من الممكن « ان نجعل هذا البلد غزير الانتاج خلال فترة معينة من الزمن ». اما اذا اختارت امريكا فلابد من الاسراع في التنفيذ لأن « حيازة املاك واسعة في امريكا لا يشكل اليوم مغامرة كثيرة الخطر ». ولكن سكان امريكا يتزايدون بسرعة كبيرة . غير ان كل ذلك ثانوي بالنسبة لتحرير الشعب اليهودي كأمة تحريرا ذاتياً باحداث مجتمع يهودي من العاملين معدلأن يصبح يوماً وطننا المنيع الذي لايجوز التنازل عنه — وطننا نحن [1] ».

والاعتراض واضح ، لا على مستوى حق الشعوب التي سيحلون في ارضها بل على مستوى تصادم السلطات السياسية « أي بلد يسمح لنا بأن نتألف كأمة ضمن حدود ارضه ؟ » . لابأس علينا فان الحكومات المضطهدة ستساعدنا لأنها « ستشعر بلا ريب بقدر من السرور عندما ترانا نرحل عن بلادها بعدل مانشعر به نحن لمغادرتها». و « من البدهي ان انشاء وطن يهودي لايمكن ان يتم بدون دعم الحكومات [2] » .

ان البيان الآخر العظيم الذي صدر بعد بيان بنسكر باربعة عشر عاماً والذي حرك الحركة الصهيونية الحقيقية ، بيان « الدولة اليهودية » لهرزل (وهو اندماجي آخر ادركه الايمان) ، لايرى

(١) المرجع نفسه ص ٩٤ - ٩٦ .
(٢) المرجع نفسه ص ٩٦ .

الاشياء بشكل مغاير لما يراه بنسكر ؛ وتلاقي المفكرين دون ان يتعارفا امر له مغزاه . « منطقتان اخذتا بعين الاعتبار : فلسطين والارجنتين . وجرت في هاتين المنطقتين تجارب استعمار يهودية نستحق الاهتما فهل تفضل فلسطين او الارجنتين ؟ ان الجمعية (جمعية اليهود التي اقترح هرزل تشكيلها لتمثيل مجموع اليهود المؤيدين لفكرة الدولة اليهودية) تأخذ مايعطى لها بعد ان تحسب لما يعبر عنه الرأي العام حسابه . وهي توازن بين هذه وتلك . فالارجنتين هي من اغنى بلاد الارض طبيعياً وهي ذات مساحة بالغة السعة مع قلة في السكان ومناخ معتدل ؛ وقد تجني الجمهورية الارجنتينية فائدة جليلة بمنحنا قطعة من ارضها . وفلسطين هي وطننا التاريخي الذي لاينسى واسمه وحده هو نداء تجمع يسيطر بقوة على شعبنا [1] » .

وهكذا كان من الطبيعي ان يدعى العلماء النظريون ، بسبب تحديدهم الهدف المنشود في شكل دولة يهودية ، ان يدعوا للاهتمام بقدر اكثر مما كانت تقتضيه مطالب الجماهير الملهمة ، بموقع الارض المراد اشغالها وبموقف الحكومات والسكان اصحاب العلاقة من هذه المطالب . وكان بنسكر وهو اقل واقعية يكتفي بان يأمل ان تكون الشطآن المنشودة اقل عداء من البلدان المتروكة وان تساعد حكومات هذه البلدان القوية (وأولها روسيا) على الهجرة

(١) كتاب تيودور هرزل وعنوانه « الدولة اليهودية » الترجمة الفرنسية ، باريس ، ليبشوكز ١٩٢٦ ص ٩٢ — ٩٥ .

اما هرزل فكان احسن ادراكاً للقضايا المشخصة . غير انه وان اهتم كثيراً منذ بيانه الأول بالحكومات وموقفها فان الرأي العام لدى السكان اصحاب العلاقة لم يكن في رأيه إلا خرافات ينبغي تجريدها من السلاح او مكافحتها .

ونظرته كنظرة المنظمة التي احدثها ، هي من النظرات التي يمكن بكل تأكيد ادراجها في نطاق حركة اوربا التوسعية الكبرى في القرنين التاسع عشر والعشرين والموجة الاساسية الامبريالية الاوربية . ولامجال ابداً الى التعجب من ذلك او الغضب . فقد كان الاستعمار في ذلك العهد يعني في جوهره ، إلا بالنسبة لفئة من الاحزاب الاشتراكية الاوربية (لفئة فقط) ولبعض العناصر الثورية والحرة ، نشر التقدم والحضارة والرغد .

كانت الدول الكبرى الاستعمارية الاوربية تسيطر على العالم انذاك . وكان لابد لكل عمل يرمي الى تحقيق تغيير سياسي من ان ينال موافقتها على الاقل اودعمها في احسن الاحوال . ولذا كان ينبغي ان يكون لهذه الدول مصلحة فيه وان يدخل في نطاق مخططاتها . وكانت هذه البدهية تفرض نفسها على كل ذهن واقعي . وفي تلك الوهلة نفسها تقريباً قضى ابو القوميات الاسلامية جمال الدين الافغاني حياته ، كهرزل ، في جس نبض الدول التي يمكن ان تسانده في خططه وفي محاولة الافادة من بعضها ضد الاخرى .

رأينا ان بنسكر قد تنبه الى ضرورة اتباع هذه السياسة . وكان هرزل واضحاً جداً في هذا الميدان . وقارع حول هذه النقطة الصهاينة الذين سبقوه ومن كانوا يدعون بعض الاحيان « عشاق صهيون » (Le Hovevé sionisme) [١] كما قارع ضمنيا ايضاً « الصهيونية الروحية » عند احادها عام [٢] والتي كانت تهدف فقط الى اقامة مركز روحي في فلسطين يمكن ان تتبلور حوله الوحدة المثالية للامة اليهودية المشتتة . واعتبر هرزل المستعمرات الزراعية المتفرقة عديمة الجدوى . فهي تقوم « على مبدأ خاطىء هو مبدأ التسرب المتتابع » . « لابد للتسرب من سوء المآل لان اللحظة التي توقف فيها الحكومة تدفق اليهود المقبل بناء على مطالبة السكان الذين يشعرون انهم مهددون ، هذه اللحظة آتية بلاريب ، ونتيجة

---

(١) اي مذهب جماعة (Hovevé - Tsiyon) عشاق صهيون . وهي حركة فلسطينية المال قامت عند اليهود الروس منذ عام ١٨٨٠ . وكانت تعنى ببعث الشعب اليهودي باقامة مستعمرات زراعية يهودية في ارض الميعاد ولم تكن لها نظرة سياسية واضحة . والاسم الشرعي الذي اتخذته الفئات التي استلهمت هذا المثل الاعلى عام ١٨٩٠ له دلالته : جمعية تشجيع العمال الزراعيين واليدويين اليهود في سوريا وفلسطين .

(٢) « واحد من الشعب » وهو الاسم المستعار لآشر جنزبرغ (١٨٥٦ - ١٩٢٧) الكاتب اليهودي الروسي واحد المفكرين النافذين ذوي النزعة القومية . وقد اهملت الحركة الصهيونية تحذيراته ، وهي مغتبطة بذلك . ولكن ميزان الحساب لم يعدّ بعد .

لذلك فانه ليس للهجرة من مبرر الا اذا قامت على اساس سيادة مضمونة . ستفاوض جمعية اليهود هذه الغاية السلطات صاحبة السيادة في الاراضي المعنية ويتم ذلك تحت حماية الدول الاوربية ان رافقها ذلك [1] » .

واخذ هرزل يشيد بالميزات التي يمكن ان تحملها الدولة الجديدة لمن يمنحونها ارضاً وللدول التي تشجع هذا المنح . وها كم الرؤى التي يراها اذا ما كانت فلسطين هي الارض التي يقع عليها الاختيار :

« اذا اعطانا جلالة السلطان فلسطين فيمكننا ان نؤمن له تنظيم المالية التركية تماماً . وسنشكل بالنسبة لاوربا هناك قطعة من سور ضد آسيا وسنكون الحارس الامامي للحضارة من البربرية وسنبقى ، كدولة محايدة ، على صلات مستمرة باوربا كلها التي تلتزم بضمان كياننا [2] » .

ومن المصير ان توضع الصهيونية بشكل اوضح في اطار السياسات الامبريالية الاوربية . وهذا هو الطريق الذي اتجهته المنظمة الصهيونية التي اسسها هرزل في مؤتمر بال في آب ١٨٩٧ . وحدد البرنامج الذي اقر في بال هدف الحركة الصهيونية بان

(١) هرزل كتاب « الدولة اليهودية » ص ٢٣

(٢) المرجع نفسه ص ٩٥

« تقيم للشعب اليهودي في فلسطين وطنا يضمنه القانون العام die schaffung einer öffentlich-rechtlich gesicherten Heimstatte in Palestina . وقد نوقش تعبير (يضمنه القانون العام) مناقشة حامية . وبدا تعبير (يضمنه القانون) « نص المشروع الاصلي » مبهماً جداً او (يضمنه القانون الدولي العام) Volkerrechtlich gesichert [1] ضيقاً جداً . وكان النص المتبنى يعني » في ذهن المؤسسين : السعي لتحقيق الحكم الذاتي لفلسطين اليهودية في ظل السلطان وبحماية الدول واعتبر لبنان المسيحي كسابقة لذلك . على ان يحدد الحقوق والواجبات المتقابلة للسلطان الحاكم وللعامرين اليهود اتفاق اومياثق تضمنه الدول . اما الفكرة المبيتة عن الدولة اليهودية المستقلة استقلالاً تاماً فلم تعلن . ومن المؤكد انها كانت موجودة في المرامي البعيدة . وعلى كل فنحن في زمن كانت فيه القوميات الغربية الداخلة في نطاق الامبراطورية العثمانية تفوز باستقلالها الواحدة تلو الاخرى ، فلماذا تشذ الدولة اليهودية العتيدة عن هذه القاعدة .

من مثل هذا الهدف نتجت نقاط برنامج بال الاربع باسلوب منطقي للغاية وهي : تطوير الاستعمار الزراعي والحرفي في فلسطين

(١) على سبيل المثال النقاش المسجل في كتاب مارسل بريتفلد « الحركة الصهيونية » دراسة في القانون الدولي العام » الفرنسية ، باريس جوفل ١٩٣٠ ص ٣٩٩ وما يليها .

بذل الجهود في تنظيم اليهود المتفرقين ، العمل على تقوية « الشعور القومي » عند هؤلاء واخيراً وليس اخراً القيام بمساع تمهيدية للحصول على الموافقات الحكومية الضرورية .

وكان لابد من دعم الدول مادام الهدف هو الدولة اليهودية لامستعمرات متفرقة اومركزاً روحياً محضاً وكانوا جميعاً يرون ذلك . دعم مباشر اولاً حتى يفيد الاتفاق الضروري مع السلطان العثماني صاحب السيادة على فلسطين حالياً من ضمانة دولية تقيه مخاطر التقلب ونتائجه النكبية التي يمكن لمذابح الارمن ان تعطينا فكرة عنها . ومن ثم دعم غير مباشر للضغط على السلطان اذا تبدى صعب القياد سواء في السماح بالاستيطان الحر او ، بشكل اساسي اكثر ، بمنح الاستقلال الذاتي المنشود . وفي كل هذه الاحتمالات كانت الرؤيا قائمة في نطاق الهجوم الاوربي على الامبراطورية العثمانية « الرجل المريض » الذي كان تمزيقه النهائي يؤجل بسبب تنافس الدول . غير انه كان وهو ينتظر حلول الساعة ، خاضعاً لكل ضروب التدخل والضغط والتهديد ، انه الاطار الامبريالي ان كان هنالك اطار . وكان سعي الصهيونية وراء دعم الدول الضروري يملي عليها بشكل حتمي سياستها تجاه هذه الدول : الافادة من خصوماتها والضغط عليها بقدر ماتسمح القوة الانتخابية او المالية لليهود المقيمين فيها والذين اجتذبتهم الحركة الصهيونية ولو نظرياً ،

او على العكس ، الاعتماد على نزعتها المعادية للسامية ورغبتها في التخلص من السكان اليهود .

وبهذه الروح حصل هرزل عام ١٩٠٣ على موافقة مبدئية من بلهف المشئوم وزير داخلية القيصر منظم المذابح [1] فدشن بذلك تقليداً سياسياً واصبح هذا التقليد محتوماً تقريباً [2] بعد تلاقي

---

(١) هذا نص من كتاب بيرتفلد المذكور سابقاً ص ٤٢٧ : وعند بلهف الحركة الصهيونية « بالدعم المعنوي عندماتؤدي تدابيرها العملية الى خفض عدد السكان اليهود في روسيا » وجاء في كتاب الشراق الفرنسي « تيودور هرزل » باريس . سوي . ١٩٦٠ ص ٢٩٦ ومابعد وصف المقابلة الودية بين هرزل وبلهف . وفي السنة التالية قتل الارهابي الاشتراكي الثوري ايغور سازونوف بلهف .

(٢) ينبغي ان أضيف الى ماورد في مقالي السنالياني « الصهيونية والاشتراكية » (نشر بالفرنسية في مجلة نوفيل كريتيك العدد ٤٣ شباط ١٩٥٣ ص ١٨ — ٤٨) والذي اعتبره صحيحاً حتى الآن ، تفصيلات عن اتفاق هاآفارا (Haavara) بين الريخ الهتلري والوكالة اليهودية لتسهيل هجرة اليهود الالمان الى فلسطين (راجع ل. هيرزوفتش) في كتاب « المانيا النازية وخطة تقسيم فلسطين » المنشور في مجلة (Middle Eastern studies) بالانكليزية المجلد ١ العدد ١ تشرين الاول ١٩٦٤ ص ٤٠ — ٦٥ . المحفوظات السرية لوزارة الخارجية الالمانية المجلد ٥ الكتاب ٢ بالفرنسية باريس ايلول ١٩٥٤ ص ٥ . ٢٥ — ١٤٨ الخ . وقد جاء في تعميم برقي من وزارة الخارجية الالمانية بتاريخ ٢٢ حزيران ١٩٣٧ « ومن شأن هذا التدبير الذي املته اعتبارات==

البرنامج الصهيوني مع برنامج المعادين للسامية ، وقد اعترف بهذا التلاقي علناً [1] .

= سياسية داخلية ان يسهم في تدعيم اليهودية في فلسطين ويسرع تشكيل الدولة اليهودية الفلسطينية (المرجع نفسه ص ٣) وقد كتب المستشار في السفارة كوديوس في ٢٧ كانون الثاني ١٩٣٨ بعد نقاش دار حول الموضوع بين مختلف السلطات الالمانية : « بت من جديد بقضيه هجرة يهود المانيا الى فلسطين وباتجاه السماح باستمرارها بقرار من الفوهرر » ص ٢٨ - .

(١) كتب هرزل في ٤ آذار ١٨٩٦ « ان اكثر مناصري حماسة حتى هذا اليوم هو عدو السامية البطرسبرجي ايفان . ف سيمونيبي ... » (الشراقي : تيودور هرزل ص ١٤١) وقد أوضح ويت وزير مالية القيصر لهرزل مايلي : « اعتدت أن أقول للامبراطور المسكين اسكندر الثالث لو كان من الممكن ان نغرق في البحر الاسود ستة او سبعة ملايين يهودي لرضيت بذلك ولكنه غير ممكن اذن ينبغي أن نتركهم يعيشون » وعندما قال له هرزل انه ينتظر من الحكومة الروسية بعض التشجيع أجاب « ولكننا نقوم بتشجيع اليهود على الهجرة بركلهم مثلاً » (المرجع نفسه ص ٣٠١ ومابعد) واعترف هرزل بقوله « يعترضون علي بشكل معقول بانني العب لعبة اعداء السامية باعلاني اننا نؤلف شعباً واحداً » (المرجع نفسه ص ٢٥٩) وفي رؤياه لولادة دولة اسرائيل يرأى اليهود المتحررين يعترفون « كان اعداء السامية على حق ونحن لا نحسدهم على ذلك لأننا نحن ايضاً سنكون سعداء » المرجع نفسه ص ٢٢٥ و ٢٢٧) . ارجو ان تسجلوا اني لم استخدم في الكشف عن موقف هرزل إلا كتابه الدولة اليهودية وسيرته بقلم الصهيوني الشراقي . وهنالك أشياء كثيرة يمكن قولها كما تدل مثلاً بحوث السيدة ليونارد في المنابع الأصلية . وقد أعطت عنها لمحة غنية التوثيق في التضامنية في ٩ كانون الاول الماضي .

ولا بد لكل مشروع سياسي تحريفي من ان يتبع سياسة من هذا النوع . وقد سبق ان قلنا ان سياسة مختلف النزعات القومية في العالم الاسلامي كانت كذلك وخصوصاً القومية المصرية والقومية العربية في بدء عهدها . ولكن القومية اليهودية كانت تمتاز عنها بان باستطاعتها الاعتماد على دعم قوي الى حد ما من مواطني الدول الامبريالية المعنية وان القاعدة الجماهيرية كانت متوفرة لها في اوربا الشرقية . وكانت « اوربية » الصهيونيين تتيح لهم ان يعرضوا مشروعهم وكأنه مرتبط بحركة التوسع الاوربي نفسها التي كانت كل دولة تنميها لحسابها الخاص . ومن هنا كانت التصريحات عن فائدة اوربا عامة وفائدة الحضارة (والشيئان واحد) او عن فائدة هذه الدولة الخاصة او تلك من دعم الحركة الصهيونية . وكان هذا طبيعياً تماماً في جو تلك الآونة . وليس لنا ان نمضي في تأملات اخلاقية مطبقين على قادة وجماهير تلك الفترة الاسس التي اصبحت رائجة اليوم . غير انه لايحق لنا ان ننكر حقيقة موقفهم أو أن نهمل نتائجه الموضوعية .

في هذه الظروف قدم المشروع الصهيوني وفي هذه الظروف آتى أكله . وقد ارتبط تحقيقه بوثيقة سياسية بريطانية هي تصريح بلفور في ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ ، ابلغ فيها اللورد روتشيلد ان « حكومة جلالته تنظر بعين العطف الى قيام وطن قومي للشعب اليهودي

(a national home) في فلسطين » . مـــا هي بواعث الحكومة البريطانية وماهو وزن كل منها ؟ تلك مشكلة تاريخية يصعب حلها حلاً دقيقاً غير ان من اليسر بمكان ان نقف على خطوطها العريضة[1] .

لنستبعد مع المؤرخ العربي جورج انطونيوس النظريات التي يفوح منها العداء للسامية والتي ترى ان التصريح كان مكافأة لجهود اليهود الامريكيين المزعومة بغية جر الولايات المتحدة الى الحرب او للاكتتابات الكبيرة في سندات الحرب من قبل اليهود البريطانيين (الواقع ان الذين اكتتبوا بالسهم الاوفى هم اليهود المناهضون للصهيونية) وكذلك النظرية الرومانتيكية التي تقول انهم كافئوا بذلك الزعيم الصهيوني حاييم ويزمن لاختراعه متفجراً قوياً ! ولا يمكن من جهة اخرى قبول فرضية ويزمن نفسه التي تقول ان التصريح كان على الاخص « عملاً فـــذاً من اعمال الضمير الانساني[2] » ساعد عليه ما كان للعودة

(١) الخطوط العريضة في كتاب ج لنكوفسكي « الشرق الاوسط في القضايا العالمية » بالانكليزية طبع إيثاكا . كورنيل يونيفرسيتي برس ١٩٦٢ ص ٦٧ ومابعد . والتفصيلات الاوسع في كتاب جورج انطونيوس « اليقظة العربية ، تاريخ الحركة العربية القومية » بالانكليزية . لندن هاميش هاملتون ١٩٣٨ ص ٢٤٣ ومابعدها وخصوصاً في مؤلف ليونارد ستين الضخم « تصريح بلفور » لندن . فالنتين ومتشل ١٩٦١ .

(٢) كتاب « Trial and Error » لحاييم ويزمن بالانكليزية . لندن. مكتبة الشرق والغرب ١٩٥٠ ص ٢٥٢

الصهيونية الكبرى من جاذبية بالنسبة للذهن البريطاني المشبع بالتوراة[1] . ومن المؤكد ان هذا الشعور الاخير لم يكن عديم الاثر في الباطن. غير ان وزارة امة مشتركة في حرب عالميـــة صعبة وغير مضمونة النتائج لاتقدم على اعمال من هذا العيار بالاستناد الى مشاعر من هذا الطراز . وويزمن كان يعلم ذلك بالواقع وهو الذي بعث الى مجلس الوزراء، عندما علم ان المجلس الوزاري الحربي يناقش القضية واندر بان التصريح سيلاقي معارضة عنيفة من الوزير اليهودي المعـــادي للصهيونية ادفين مونتاغو[2] ، بمذكرة تتضمن هـذه الكلمات : « اننا ، اذ نضع قرارنا بين يديكم ، نكل مصيرنا القومي الصهيوني الى وزارة الخارجية والى المجلس الحربي الامبراطوري آملين النظر في القضية على ضوء المصالح الامبراطورية والمبادىء التي يدافع عنها الحلف[3] »ان اهم اسباب التصريح هو الامل باحداث تأثير دعائي بين يهود الامبراطوريات الوسطى وروسيا والامل بوجود ذريعة يتمسك بها عند تصفية الامبراطورية العثمانية القادمـــة . لقد انضم يهود المانيا (حيث كان مركز المنظمة الصهيونية حتى عام ١٩٤٤) ويهود

(١) المرجع نفسه ص ٢٢٦

(٢) ولم تكن هـــذه المعارضة وحدها ، كما ظن ويزمن ، هي التي بدلت مشروع التصريح في اتجاه يقيم وزنا اكبر قليلا لحقوق غير اليهود ولكنها اسهمت في ذلك

(٣) كتاب ويزمن المذكور سابقاً

النمسا ـ المجر الى المجهود الحربي في بلادهم . وقد نتج هذا الانضمام الى حد كبير عن ان المقصود هو محاربة روسيا القيصرية مضطهدة اليهود . وقدم الالمان انفسهم في الاراضي الروسية المستولى عليها كحماة لليهود المضطهدين وكمحررين من النير الموسكوفي (١) . وكانت الثورة الروسية تقوي الاتجاهات الانهزامية في روسيا . ونسبوا لليهود دوراً هاماً في الحركة الثورية الروسية . وكان من الامور الرئيسية ان تهيأ لهم الاسباب لدعم قضية الحلفاء . ولم يكن ابداً من قبيل المصادفة ان يسبق تصريح بلفور بخمسة ايام تاريخ ٧ تشرين الثاني المصري (٢٥ تشرين الأول في التقويم الجولياني) الذي استولى فيه البلاشفة على الحكم . فقد كان احد اهداف التصريح مساندة كيرنسكي . وقد فكروا ايضا بوزن اليهود في الولايات المتحدة البلد الذي انضم للحلفاء حديثاً . وكان ينبغي ان يحصلوا من الولايات المتحدة على بذل اقصى الجهود بينما كان فيها بالحري

(١) قال البيان البليغ الذي وجهته القيادة العليا الألمانية النمسوية المجرية الى يهود بولونيا في آب - ايلول ١٩١٤ : « لقد تحملتم طويلا تحت نير موسكو الحديدي » . ومن المؤلم جداً ان نقرأ بعد التجربة التي تلت ذلك هذا الاستنكار للمذابح والعداء للسامية عند قيصر . ومن المعروف ان الاحزاب الاشتراكية الديمقراطية الالمانية والنمسوية المجرية قد استخدمت هذه الذريعة ذريعة الكفاح ضد القيصرية الرجعية عدوة السامية لتبرير دعمها لحكوماتها في الحرب .

ميل الى السلم (١) . وكان ينبغي ان يسبقوا الصهاينة الالمان والنمسويين الذين كانوا يفاوضون حكومانهم للحصول من الحكومة التركيه على نوع من « تصريح بلفور » (٢) .

أما من ناحية فلسطين ، فلا ضير من أن يكون تحت تصرف انكلترا في الشرق الأدنى سكان مرتبطون بها بعامل العرفان والضرورة، في حين كان الاتفاق مع شريف مكة الحسين على الثورة ضد الاتراك قد تم لقاء الوعد بملكة عربية كبيرة ، وفي حين كان الاتفاق السري سايكس - بيكو (بدء ١٩١٦) يقسم البقاع نفسها الى مناطق نفوذ انكليزية وفرنسية ، وفي حين كانت هذه الاخيرة

(١) راجع تصريح لويد جورج للجنة فلسطين الملكية عام ١٩٣٦ : « لقد وعدنا القادة الصهاينة وعداً صريحاً بان يعملوا احسن مافي وسعهم لتحبيذ مشاعر اليهود وحلمهم على مساعدة قضية الحلفاء في العالم اذا تعهد هؤلاء بان يمنحوهم تسهيلات لاقامة وطن قومي لليهود في فلسطين . وقد بذلوا أحسن ماعندهم » . وبسط هذا التبرير امام مجلس العموم عام ١٩٣٧ فقال ان الصهاينة « قد ساعدونا في امريكا وفي روسيا التي تحولت في ذلك الحين وتركتنا وحدنا » (كتاب لنكوفسكي المذكور ص ٨١ ومابعدها).

(٢) التفصيلات موجودة في كتاب « تصريح بلفور » لستين ص ٥٣٣ ومابعدها . راجع ايضاً مقال ك . هرمن « الجواب السياسي على تصريح بلفور في المانيا الامبراطورية » « Political Respsonse to the Balfour declaration in Imperial germany » المنشور في صحيفة الشرق الاوسط الانكليزية عام ١٩٦٥ ص ٣٠٣ - ٣٢٠ .

تستغل اتصالاتها اللبنانية لوضع مخططات لسوريا كبرى (تضم فلسطين) تحت النفوذ الفرنسي[1] . وجعل فلسطين قضية خاصة ومنح بريطانيا فيها مسؤولية خاصة معناه ايجاد اساس قوي للمطالبات اثناء التقسيم الذي سيتلو الحرب . لقد ألح ويزمن على أنه واركانهم الذين طلبوا اولا من الانكليز الممتنعين ان يمارسوا نوعاً من الحماية على الدولة اليهودية العتيدة[2] . وقد يكون ذلك صحيحاً . ولكن الاقتراح قد فاز في النهاية بتقبل حار . وكانت العقبة الكبرى هي فرنسا التي طالبت بلسان جورج بيكو بهذه الحماية على فلسطين ان احدثت فيها دولة يهودية[3] .

ولم يتح لتصريح بلفور الوثيقة السياسية البريطانية ان يجوز امكانات التطبيق الا بعمل ونجاح عسكريين يعود الفضل فيها اساساً لبريطانيا العظمى تساندها فرنسا والولايات المتحدة : التغلب على

---

(١) راجع كتاب جورج سمنة « سوريا » بالفرنسية . باريس . بوسار ١٩٢٠ . وهو كتاب منحاز الى فرنسا وموجه في هذا الاتجاه وقد ختم الفصل الخامس عشر وعنوانه « اليهودية والصهيونية » (ص ٣٩٦ ومابعدها) بعد صفحات مبصرة بان اقترح على الصهاينة حكماً ذاتياً يهودياً وسط اتحاد سوري ترعاه موقتاً صديقة سوريا العظمى العادلة النزيهة فرنسا ص ٤٢٦ .

(٢) كتاب Trial and Error الطبعة المذكورة ص ٢٤٣

(٣) المرجع نفسه

الامبراطورية العثمانية في فلسطين وفي سورية [1] ، أواخر عام ١٩١٨ وعندئذ طرحت اشد المشكلات السياسية بروزا . ولم تكن القضية العربية الى ذلك الحين قد ظهرت في الصف الاول كما يقول ويزمن وقد أهملها الصهاينة عملياً [2] . ولكنها اصبحت بالغة الخطورة . فقد اضحى العرب فجأة عنصراً هاماً في اللعبة السياسية .

كان من الممكن ، قبل بضعة عقود ، أن يتحقق المشروع الصهيوني على المستوى الذي تصوره الساسة الصهاينة عن طريق التواطؤ ما بين المنظمة الصهيونية المزودة بوسائل واسعة والحكومات وخصوصاً حكومات الدول الامبريالية الاوربية . ولكن مرحلة التطبيق قد برزت ، لسوء حظهم ، في اللحظة التي اخذت تتكون فيها قوميات البلدان المسلمة . وقد اصطدم القادة الصهاينة عند السلطان عبد الحميد بعناد المالك ازاء تمزيق جديد متوقع لامبراطوريته [3]

---

(١) كان مدى الاسهام العربي (جيوش فيصل وعداء الرأي العام العربي للباب العالي) موضع نقاش كثير . ويمكن ان نذهب بالتفكير الى انه ان لم يكن تافهاً فانه لم يكن حاسماً .

(٢) راجع مقال ب . آ . السيرغ « القضية العربية في دبلوماسية المجلس التنفيذي الصهيوني قبل الحرب العالمية الاولى » بالعبرية في (Shivat Tsiyon) الجزء الرابع ١٩٥٦ — ١٩٥٧ ص ١٦١ — ٢٠٩

(٣) افهم هرزل باسلوب صريح في حزيران ١٨٩٦ ان « الامبراطورية التركية لاتخصي بل تخص الشعب التركي . ولا استطيع ان اوزع منها اي قطعة . ليوفر اليهود ملياراتهم ! يمكنهم عندما سيجري =

وبمقاومات دينية من بطانته وبخوف الوزارة العثمانية المعقول من ان ينتهي ادخال عنصر قومي جديد ، كما حدث في اليونان وبلغاريا ورومانيا والصرب ، الى مطالبات بالاستقلال يساندها الاجنبي والى حروب جديدة مشئومة على الامبراطورية . وهذا التحليل السديد قد حمل السلطان اخيراً على التصميم على رد عروض هرزل التي اغرته ميزاتها المالية كثيراً ، كما يبدو [1] . غير انه استغلها خصوصاً لرفع عروض طامعين آخرين وغير منزهين بغيـــة اعادة توازن المالية العثمانية [2] .

وتظهر دراسة نيفيل مندل [3] الممتازة الحديثة تماماً والمستندة

=تقسيم امبراطوريتي ان يأخذوا فلسطين بدون مقابل . الا انه ماسيقسم هو جثتنا فقط . انني لا اقبل البتر » من كتاب يوميات تيودور هرزل الكاملة نشر بالانكليزية في نيويورك . طبعة ر . باتال . ١٩٦٠ الجزء الاول ص ٣٨٨ . اورده وفق ماجاء في مقال نيفيل مندل المذكور بالحاشية رقم ٣

(١) الشراقي « تيودور هرزل » بالانكليزية ص ٢٣٩ وما بعدها والترجمة الفرنسية لكتاب جون هاسليب « السلطان ، مأساة عبد الحميد » باريس . هاشيت ١٩٦٠ ص ٢٢٦

(٢) نيفيل مندل . المقال المذكور في الحاشية التالية رقم ٣

(٣) نيفيل مندل «الاتراك والعرب والاستيطان اليهودي في فلسطين ١٨٨٢ – ١٩١٤ » في St Antony's Papers رقم ١٧ وفي (شئون الشرق الاوسط العدد رقم ٤) لندن اوكسفورد يونيفرسيتي برس ١٩٦٥ ص ٧٧ – ١٠٨ .

الى احسن المصادر ان المقاومة العربية للاستعمار الصهيوني في فلسطين قد بدأت مع بدء هذا الاستعمار قبل حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ بكثير ، خلافاً للرأي السائد حتى الان . غير انها لم تتخذ في البدء طابعاً سياسياً . فقد عارض الفلاحون المستعمرات الصهيونية بقدر ما كانت تصدم مصالحهم ثم وطنوا انفسهم على وجودها واجروا معها تسويات كانت احياناً في مصلحتهم . اما في المدن ، فاذا كان كبار الملاكين قـــد سرهم ارتفاع أثمان الارض واذا كانت الجماهير قد بقيت غير مكترثة فان التجار وكل افراد ما يسمى بالقطاع الثالث قـد احتجوا خوفاً من المزاحمة الاقتصادية المرتقبة ، وكانت أغلبية هـــذه الفئة من المسيحيين . وكانت الضجة التي اثارها كتاب هرزل في ١٨٩٦ والمؤتمر الصهيوني السياسي الاول في ١٨٩٧ ومساعي هرزل عند السلطان قد بدأت تزيد من حركة المعارضة . ولكن عـداء الحكومة العثمانية للصهيونية كان بمثابة ضمان بان الخطر لايزال بعيداً جداً . ولم يظهر اثر الحركة القومية العربية ، التي تشكلت بجهـد ضد الاتراك والتي اجتذبت في البدء المسيحيين بشكل خاص ، في الاحتجاجات ضد الاستعمار الصهيوني الا بعد ١٩٠٥ . وفسحت ثورة تركيا الفتـاة عام ١٩٠٨ ، بمنحها حرية التعبير السياسي والسماح بتشكيل الاحزاب ، المجال امام بعض الفئات للاعراب عن السخط الدفين ولاستغلاله في مناهجها ومحاولة تعبئة الجماهير حول هـــذه المناهج . الا ان سياسة التتريك التي سرعان ما اصبحت سياسة الفئة الحاكمة جماعة الاتحـاد

والترقي ، قد اسهمت اسهاماً قوياً في تصلب موقف العرب وفي دفع المسلمين نحو القومية العربية . واثار النواب العرب القضية الصهيونية في البرلمان العثماني . وعقد الوضع السياسي الامور كثيراً. فقد ابقت جماعة الاتحاد والترقي التضييقات المفروضة على الاستيطان اليهودي من جهة ولكنها من جهة أخرى شرعت تحت تأثير التدهور المالي تفاوض الصهاينة وتساومهم على الغاء هذه التدابير كما فعل خصمها السياسي « الحلف التحرري ». لقد كان لديها من الثقة في قوتها السياسية ما ابعدها عن تبني مخاوف عبد الحميد من النتائج المحتملة للصهيونية . وظل ساسة العرب في معظمهم ضد الصهيونية واستنكروا التلاقي الصهيوني ـ الاتحادي الذي اعتبروه قائماً واستغلوا اشتراك لجنة الدونمي من سالونيك في القضية على نطاق واسع . والدونمي هؤلاء متحدرون من شيعة يهودية سرية . ومع ذلك فان من كانوا منهم ابعد نظراً واقل تماساً مع ردود الفعل المحلية ، قد راودتهم فكرة اتحاد القوميات الانفصالية ضد مركزية تركية الفتاة العثمانية . وبمكن في هذا المجال للحركة الصهيونية التي تمتلك وسائل مالية قوية وعدداً كبيراً من الشخصيات ذات المستوى الثقافي الرفيع والتجربة السياسية الكبرى ان تساعد الحركة القومية العربية الناشئة الغرة الضعيفة الفقيرة . وقد قامت لهذه الغاية مفاوضات استمرت حتى ١٩١٤ وتخللتها مراحل مخيبة . وقد تم العثور في المحفوظات الصهيونية

على الانذار المر الصادق الذي وجهه المهندس العربي ناصيف بك الخالدي من القدس بعد فشل ذريع وكان هذا المهندس من قبل المدافع عن الاتفاق العربي الصهيوني . لقد صرح بالفرنسية للدكتور طون من المكتب الصهيوني في يافا :

« حذار ايها السادة الصهيونيون ان الحكومات تمضي ولكن الشعب يبقى [1] »

كان الصهيونيون قليلي الاهتمام برد فعل العرب (وهنا يظهر العنصر الامبريالي اللاشعوري في سير تفكيرهم) . « وفد المستوطنون اليهود الى فلسطين وهم يعتقدون انها بلد كثيف يقطنه سكان مبعثرون وكانوا من الانشغال بقضاياهم الخاصة ومن الجهل بالعرب على قدر لا يترك مجالاً لملاحظوا مايجري حولهم . وبما ان الاتراك هم الذين يحكمون فلسطين فقد كانوا يوجهون كل اهتمامهم للاتراك . ولم يساعد هذا التوجيه على ان يكسب اليهود شعبية بين العرب [2] » .

ووعى بعض اليهود الصهيونيين اهمية المشكلة في نهاية الحرب العالمية الاولى عندما ظهرت الحركة القومية العربية كعامل عظيم

---

(١) مندل المرجع المذكور سابقا ص ١٠٤ ، ومابعد ؛ م . بيرلمن « فصول عن الدبلوماسية العربية اليهودية ١٩١٨ — ١٩٢٢ » ، في مجلة (دراسات اجتماعية يهودية) بالانكليزية . نيويورك المجلد ٦ العدد رقم ٢ ١٩٤٤ ص ١٢٣ — ١٥٤ .

(٢) مندل المرجع نفسه ص ١٠٦ .

الاهمية . وقد قوى هذا العامل ، الذي قلما كان يظهر من قبل ، قناعة كثير من اليهود عبر الصهيونيين فاطلقوا تحذيرات صائبة (١) . ولكن ذلك لم يكف لتغيير موقف القادة الصهاينة المدفوعين بمنطق وضعهم عند الانطلاق ، واعتبروا حركة القومية العربية مرتبطة باساسها ببريطانيا العظمى (٢) مهملين بذلك القاعدة الجماهيرية الفعلية او الموجودة بالقوة والمتوفرة للقادة العرب الذين كانوا بعض الاحيان، بالواقع ، عملاء بريطانيين وفي الاغلب رجالاً يلعبون بالورقة

---

(١) المثل على ذلك القاضي اليهودي الامريكي مايرسلزبرجر الذي يبين في عام ١٩١٧ التناقض بين المبادىء الاولية للديمقراطية والمشروع الصهيوني الذي يجعل مصير الفلسطينيين متوقفاً على اناس من الخارج (ذكر ذلك لنكوفسكي في كتابه المذكور سابقاً ص ٣٧٥) والابرز من ذلك والاشد سداداً وحصافة رسالة جاك بيجار امين سر الاتحاد الاسرائيلي العالمي الى جوزيف بيجاما مدير الاتحاد في سالونيك بتاريخ ٣ ايار ١٩١٨ النص في الشراق «الاتحاد الاسرائيلي العالمي والنهضة اليهودية المعاصرة» باريس P.U.F. ١٩٦٥ ص ٤٧٠ - ٤٧٢ .

(٢) راجع الانطباع البليغ الذي عبرت عنه فتاة لم تكن في ذلك الحين سوى مناضلة اشتراكية صهيونية امريكية في رسالة من فلسطين التي امتها حديثاً الى صهرها في ٢٤ آب ١٩٢١ : « اذا تشبثنا بهذه البقعة فان انكلترا ستساعدنا فلن يلتقي الانكليز العرب لاعمار فلسطين بل سينتفوننا» (في كتاب جولدا مايرلماري سيركين . الترجمة الفرنسية . باريس . غاليمار ١٩٦٦ ص ٢٦٣ .

البريطانية ترواد هم نفس الافكار المستسرة التي يحملها القادة الصهيونيون انفسهم . غير انه ينبغي ان ننتبه مع ذلك الى ان حريتهم في العمل وفي المناورة كانت تحدها ضرورة عدم الظهور بمظهر الخونة امام الجماهير . فقد كان لشعور الجماهير العميق حتى الكامن غير المعلن وزن ثقيل في الموقف . وقد برهن القادة الصهيونيون باعمالهم هذا العنصر ، وهو اقوى العناصر على المدى البعيد ، عن منحى فكري يفسره ويبرره طغيان الرؤيا الاستعمارية للعالم في اوربا انذاك . ولم يكن هذا المنحى الا من الطراز نفسه ولم يقصر عنه في السير نحو النكبات القادمة .

كانت تصفية الحرب عسيرة كما هو معلوم . انها سلسلة من المساومات القذرة (وقد قال عنها ولسن the whole disgusting scramble هذا الخليط المنفر كله) يصحبها في اقصى الاغوار ، ردود فعل على جانب من الوحشية (حسب الامكانات) يقوم بها السكان الذين كان المساومون يبتون بمصيرهم . والاتراك وحدهم هم الذين استطاعوا أن يعبئوا قوى كافية في ارض مناسبة واثروا فعلاً في النتيجة . لقد ضاعف البريطانيون الوعود المتضاربة وكان ذلك نتيجة تطور الموقف والتفكير خلال الحرب كما كان نتيجة تباين وجهات نظر المراجع المختلفة . ولحظت معاهدة سايكس بيكو لفلسطين ادارة دولية بسبب التنافس بين الفرنسيين والانكليز والروس القيصريين . ولكن

الثورة الروسية جعلت هذا الاتفاق ساقطاً الى حد ما وعرضة لاعادة النظر . وكان الاتجاه الى تأمين ضمانات من الاراضي قد زاد عند البريطانيين اثناء الحرب لعدة عوامل. الرغبة في تأمين مركز امامي لحماية قناة السويس والتخطيط لتأمين الاتصال الارضي بين مصر وبريطانيا (١) والحرص على تقليص الحمايةالفرنسية في سوريا ولبنان، تلك الحماية التي اضطروا الى اقرارها ، وعلى اقامة مايوازنها . وبقي تصريح بلفور الحجة الرئيسية التي يمكن ان تستند اليها المطامع البريطانية خلال المساومة . وقد سهل مهمة الانكليز انحياز المجلس التنفيذي الصهيوني الواضح الى جانب الحماية البريطانية ضد مشروع الحماية الفرنسية (٢) .

وهكذا تكاتف البريطانيون والصهيونيون في قضية فلسطين . ولا يعني هذا القول ان الانكليز قد اهملوا لذلك زبائنهم العرب الذين كانوا يتكلون عليهم رغم تقشع الاوهام الناتج عن الحنث بالعهود التي قطعوها لهم . غضبت الجماهير العربية وانتقلت بعض الاحيان الى اعمال العنف ورأى الزعماء العرب ان من الابرع أن يراوغوا ويحاولوا الفوز باقصى مايمكن دون ان يعرضوا عن استخدام

(١) كتاب (Bruains Moment in the Middle East)لالیزابث موترو ١٩١٤ — ١٩٥٦ لندن . شاتو وندبس ١٩٦٣ ص ٣٩ ،راجع كتاب اليقظة العربية لجورج انطونيوس ص ٢٤٦ وما بعد

(٢) Trial and Error (التجربة والخطأ) لويزمن ص ٢٣٨ .

الورقة البريطانية (رغم بعض المحاولات الفاشلة للتطلع الى جهة اخرى) . ومما قوى هذا الاتجاه ان فيه ميزات شخصية كبيرة لهم. وقامت اقدم محاولات الاتفاق بين الصهاينة والعرب في هذه الفترة وكانت بالطبع اتفاقات فمة . وهي تدخل في اطار السياسةالبريطانية لأنها كانت ترمي ، من جهة ، الى التوفيق بين الوعود المتناقضة المترا كمة اثناء الحرب ، ومن جهة اخرى ، الى تشكيل سلسلة من الدول — الصمامات الخاضعة للنفوذ البريطاني والتي تحمي السويس من ناحية آسيا وتراقب تركيا الكمالية المقلقة حليفة روسياالسوفياتية المقلقة اكثر منهاوتوازن نفوذ فرنسا المرتقب وفرنسا حليف نكد . اتصل ويزمن ، بناء على نصيحة اللنبي القائد الأعلى للقوات البريطانية وفي حين كان الاتراك لايزالون يحتلون فلسطين كلها تقريباً ،بالامير فيصل بن الشريف حسين وقائد القوات العربية . ووجد ويزمن وفيصل مجالاً للاتفاق وعقدا في السنة التالية عندما افتتح في باريس مؤتمر الصلح اتفاقاً مشهوراً . وقد واجه فيصل رئيس وفد الحجاز الى مؤتمر الصلح والناطق الوحيد بامانى العرب في هذا المؤتمر موقفاً صعباً . فقد تعرض بشكل رئيسي لعداء فرنسا التي كانت تلح على تطبيق اتفاقات سايكس — بيكو وتنظر بحذر الى قيام دولة عربية في المستقبل تتأثر بالانكليز ويمكن ان تستخدم كمحرض لليقظة العربية في المغرب الفرنسي . لقد تنازل كليمنصو مبدئياً عن الموصل

وفلسطين للوبد جورج لقـــاء تعويض وكان لابد من الحصول على موافقة كل الاطراف المعنية بمصير فلسطين لكي يقر المؤتمر هـذا الاتفاق الخاص .

ودفع فيصلاً اصدقاؤه الانكليز ولورنس بالوجه الأول الى الاتفاق مع الصهاينة ؛ وكان هؤلاء الانكليز سنده الوحيد في عالم الدبلوماسية الأوربية الغريب الذي زج فيه على حين غرة . وقـد انس بويزمن الذي عني بان « يعرض القضية كلها باكثر مظاهرها بعداً عن الأذى[1]» وفق ما كانت عليـــه سياسة هرزل المستمرة وسياسة خلفائه . ومن المؤكد ان فيصلاً الذي لم يكن يمتلك شيئاً في تلك الآونة قد اغرته، اكثر مما يرى المؤرخون العرب، فكرة اعطاء فلسطين لليهود مقابل استقلال دولة عربية كبرى تسدي اليها فلسطين اليهودية الصغيرة هذه مساعدة تقنية من اثمن المساعدات . ولعب بعض الوقت لعبة مزدوجة لأنه لم يكن يأمل بان يحمل بيسر الجماهير العربية التي تشكل قاعدته وخصوصا شعب فلسطين[2]

(١) كتاب تيودور هرزل بقلم الشراقي ص ٢٧٦ .

(٢) لقد اقتنعت بمقال م . برلمان (فصول من الدبلوماسية العربية اليهودية) المذكور سابقاً . صحيح ان جورج انطونيوس قد حاول ان يقلل من شأن تنازلات فيصل ويجد له المعاذير (اليقظة العربية ص ١٨٥ ومابعد) ولكنه نشر نص اتفاق ويزمن فيصل مع معمياته الخطرة عن وضع فلسطين التي يجب ان تحـدد حدودها مع الدولة العربيـة =

على الرضا عن هذه السياسة . وكان المقصود بوجه عام السماح باقامة بضعة آلاف من العاملين اليهود من مستوى تقني رفيع ، ولقاء ميزات عديدة وعدت بها المنظمة الصهيونية . بجانب دولة عربية واسعة غنية بالاقليات العنصرية والدينية . ولم يكن شعار « الوطن القومي اليهودي » الغامض عن قصد يثير بشكل استفزازي مشكلات السيادة في في تلك الآونة [1] . وقـد ابدى ويزمن استياءه لأن تارديو ممثل فرنسا في مجلس العشرة أعلن رسميا في شباط ١٩١٩ ان فرنسا لاتعارض ابـــدأ انتداباً انكليزياً على فلسطين ولا تشكيل دولة

=(ص٤٣٧ - ٤٣٩) . واعتقد ان سيلفيا حايم كانت مضطرة تجاهه في (Die Welt des Islams) بالالمانية المجلد الثاني لايدن - كولن ١٩٥٣ ص ٢٣٧ - ٢٥٠ . كان انطونيوس مؤرخا ملتزما . فلتسمح السماء ان يكون كل المؤرخين الملتزمين محتفظين بهذا القدر من الاتزان والموضوعية.

(١) وهذا ما كان في رأي فيصل ، يبرر الموقف مؤكداً . راجع (Trial and Error) لويزمن ص ٢٩٠ وبعدها وانطونيوس (اليقظة العربية) ص ٢٨٠ وبعدها و (Chapters) لبرلمن ص ١٣٠ وبعدها ، و (L'ultima fase della questione orientale) (الوهلة الخاسمة في المسألة الشرقية) بقلم ل . آ . جيانيني ١٩١٣ - ١٩٣٢ طبع معهـد الشرق بالايطـــالية روما ص ٢٧٨ وما بعدها وكتـــاب ف . روسي (Documenti sull'origine e gli sviluppi della questione araba) (من ١٨٧٠ - ١٩٤٤) روما معهد الشرق ١٩٤٤ ص ٧٢ وما بعدها .

يهودية و كتب : « أما من جهتنا فقد تفادينا تماماً من استعمال هـذا التعبير [1] ».

تصور كلا الفريقين ان اتفـــاق ويزمن – فيصل سيستخدم للحصول من مؤتمر السلام على التصديق الرسمي على اهداف كل منها : مملكة عربية كبرى مستقلة لفيصل واقصى مايمكن في سبيل الاستعمار اليهودي لفلسطين وفي سبيل ارض يهودية محكومة حكماً ذاتياً تحت الحماية الانكليزية لويزمن .ورضي الاول بالنص على الحماية الانكليزية لبلوغ هدفه وخصوصاً ضد فرنسا وطالب الثاني بهذه الحماية حذرا من احتمال وجود خصوم لمشروعه . وقبل فيصل مسبقا بالاستعمار اليهودي لفلسطين كأمر يمكن ان يكون مفيداً ولأن قبوله به يمكن أن يستخدم للفوز بموافقة بريطانيا العظمى على مشروعه اولاً وموافقة الحلفاء بالتالي . غير انه لم يعمه عن الأخطار المحتملة للميثاق المعقود وقد عني بعدما نبهته ردود الفعل العربية المحلية العدائية بأن يضيف الى الاتفاق ذيلا « معقولاً تماماً في حدود مايقصد منه » كما اعترف ويزمن بموضوعية [2] . وقد علق هذا الذيل الاتفاق كله على منح الاستقلال للعرب . فأقل تبديل واخف بعد عن المطالب الـــتي تضمنتها مذكرته المؤرخة في ١٤ كانون الثاني ١٩١٩ يجعل مجموع

(١) ويزمن المرجع المذكور ص ٣٠٦ .

(٢) المرجع نفسه ص ٣٠٨ .

الاتفاق موضع اعادة نظر [1] . غير ان الاتفاق قائم حالياً . وقد قال ويزمن « اعتقد انه لابد من القول بان وجود هذا الاتفاق قـد لعب دوراً كبيراً في موقف الكبار الايجابي من المطامح الصهيونية [2].

ينبغي ان نذكر ، دون ان ندخل في تفصيلات المفاوضات المعقدة التي تلت ، ان ذلك كله قد ادى الى الانتداب على فلسطين. وعهدت عصبة الامم بهذا الانتداب الى بريطانيا العظمى بتاريخ ٢٤ تموز ١٩٢٢ . وقد ثبت هذا الانتداب صراحة تصريح بلفور باسم الجماعة الدوليـــة ومنح السلطة المنتدبة « صلاحية اقامـــة مؤسسات سياسية وادارية واقتصادية في البلاد من طبيعتها ان تؤمن قيـــام الوطن القومي للشعب اليهودي [3] » وعين المنظمـــة الصهيونية لتحمل مسئولية معينة حيال السلطة الفلسطينية فيما يتعلق بقضايا اليهود .

(١) « اليقظة العربية » لانطونيوس ص ٤٣٧ وبعدهـــا و Documenti لروسي ص ٧٢ وما بعد وكتاب ويزمن المذكور ص ٣٠٨ كلها تهون قليلا من الأمر .

(٢) المرجع المذكور نفسه ص ٣٠٨ .

(٣) راجع Documenti لروسي ص ١١٣ ومابعد وكتاب آ. جيانيني Documenti per la storia della pace orientale ١٩١٥ – ١٩٣٢ بالايطالية روما معهد الشرق ١٩٣٣ ص ٩٨ ومابعدها . ثبت تصريح بلفور بمعاهدة سيفر مع تركيا (١٠ آب ١٩٢٠) في مادتها رقم ٩٥ (جيانيني Documenti ص ٤٤ ومابعدها .

وانطلاقاً من هذه الوقائع يبدو لي ان النتائج التالية لا تقبل الجدل تاريخياً . ان تحقيق المشروع الصهيوني لم يبدأ الا بفضل وثيقة سياسية امن الحصول عليها من بريطانيا العظمى بضغط المنظمة الصهيونية . وقد سلكت بريطانيا هذا المسلك للحصول على الدعم لسياستها العامة من قبل جماعة الضغط الفعال التي كانت تتألف ، كما خيل اليها ، من يهود الامبراطورية الروسية والولايات المتحدة دون ان تتساءل كثيراً عن الروابط الفعلية التي تربط هؤلاء اليهود بالحركة الصهيونية السياسية ، ولانه زين لها ان الوثيقة المشار اليها تخدم مصالحها في الشرق الادنى الخارج من الحرب، والقادة الصهيونيون قد صوروها لها كذلك . واعتبرت بريطانيا انه يمكن التوفيق بين هذا الخط ، على الاقل على المدى البعيد ، وبين المساندة التي تبذلها للأمراء العرب من السلالة الهاشمية ودعم هؤلاء لها بالمقابل . وساعد القادة الصهيونيون على تحقيق هذا التوفيق بارجاء مشروع الدولة اليهودية موقتا وبالاكتفاء بالمطالبة بحقهم في تسهيلات للاقامة في فلسطين وفي الاستيطان الحر . والخلاصة ان من حق العرب ان يعتبروا ان ترسخ عنصر غريب جديد في الارض الفلسطينية (عنصر في غالبيته العظمى اوربي انذاك) امر فرضته عليهم دولة اوربية بالاستناد الى النصر العسكري الذي احرزه فريق من الدول الاوربية ضد فريق اخر كانت الامبراطورية العثمانية قد انضمت اليه .

يجب ان تعتبر هذه النتائج اساسية . فالصهاينة يميلون في الواقع الى تحديد نقطة انطلاق الدولة اليهودية اما من تاريخ الاستعمار اليهودي الاول في فلسطين مع موجة الاستيطان الاولى (اول عاليه) من ١٨٨٢ الى ١٩٠٣ وهذا مايضع في المقام الاول حركة الجماهير اليهودية الذاتية واما من حرب ١٩٤٨ المسماة حرب الاستقلال وهذا ما يبرز رفض العرب القبول بقرار التقسيم الصادر عن هيئة الامم المتحدة ونوايا انكلترا السيئة ان لم نقل عداءها الصريح الذي اثار ضدها حرباً ارهابية في السنوات السابقة .

كان دور الاستعمار اليهودي السابق لعام ١٩١٤ هاماً طبعاً ولكن وجود ٨٥٠٠٠ يهودي في فلسطين عام ١٩١٤ (وقد هبط هذا العدد الى نحو ٥٦٠٠٠ اثناء الحرب) لم يلعب الا دوراً ثانوياً جداً في قضية تبني تصريح بلفور . ومطالبة البيشوف بالاستقلال لم تقبل الا على اساس وجود ٥٣٩٠٠٠ يهودي في فلسطين اي ٣١٫٥٪ من مجموع السكان (١٩٤٣) بينما لم تكن النسبة عام ١٩٢٢ سوى ١١٪ [١] . ولم يكن هذا الاستيطان الكثيف ممكنا الا بفضل الحماية البريطانية التي نالوها بالاسلوب الذي ذكرناه . ولم يكن من الممكن ، في ظل دولة عربية مستقلة وحرة من كل

(١) راجع « المدخل الى الصهيونية » لاسكندر بين . اورشليم روبان ماس ١٩٤٦ (الصهيونية : الوقائع والافكار من مطبوعات قسم الشبيبة في المنظمة الصهيونية العالمية) ص ١٠٥

ضغط ، تصور حدوث الاستيطان بهذه الابعاد مع المطامع المقلقة التي يدعمها . وقد وعى ذلك تماماً القادة الصهيونيون الذين كانوا يطالبون زمن الانتداب بتقوية جهاز الشرطة البريطانية ويعارضون في احداث اي جهاز تمثيلي يمكن ان ينقص من سلطات المفوض السامي ولو قليلاً [1] .

وكان فيصل عجز عن ضمان تطبيق ماقبل به بالاكراه نوعا ما كما دلت الحوادث اللاحقة او كان لامفر من تقليص الامال الصهيونية تقليصاً اساسياً . وعلى كل فقد كانت مساوماته تستند الى المحرك الامبريالي الذي طوح بامآله كما طوح بالوضع نفسه الذي قد يفتح امام فيصل فرصة ضعيفة لحمل جماعته على القبول بما اختار، فاضطر الى التراجع . ان بريطانيا العظمى هي التي خلقت ، كما تدل الوقائع ، الاساس لتحقيق حلم هرزل اساس الدولة اليهودية وان ندمت على ذلك فيما بعد .

ولم يتوصل العرب كذلك للفوز بأساس لاستقلالهم المقبل إلا بفضل الدعم البريطاني . فالاحداث نفسها التي أقامت أساس الدولة اليهودية قد خلصتهم من النير التركي . وكانت خيبتهم مرة لأنهم

---

(١) ابرز ذلك ابرازاً حسناً في مقال ناتان وينستوك الهام « اسرائيل والصهيونية وصراع الطبقات » المنشور في مجلة « الانصار » العدد ١٨ كانون الاول ١٩٦٤ وكانون الثاني ١٩٦٥ ص ٥٧ – ٦٣ والعدد ٢٠ نيسان ايار ١٩٦٥ ص ٢٠ – ٣٢

بدلاً من الدولة الكبرى الموحدة المستقلة التي وعدوا بها ، جزء الوطن العربي الآسيوي وأخضع باسم الانتداب الخادع ، لحماية دولتين اوربيتين كبيرتين مع تضييقات عديدة على حرية تقرير المصير لخدمة مصلحة فريق ثالث . وكان يتاح للمنظمات السياسية داخل الممالك والجمهوريات العربية الموضوعة تحت الانتداب ان تتطور مع شيء من التضييق يختلف باختلاف الظروف والبلدان . وكانت طبيعة هذه المنظمات القومية العربية وتطلعها الى استقلال بعيد او قريب امراً معروفاً ، وكانت ايضاً قاعدة نضالية للمطالبة بالاستقلال التام.

وكان كلا الجانبين مرتبطاً بالتزامات . غير ان شروط الفكاك كانت تختلف بالنسبة لكل منها اختلافاً كبيراً . فمطالب المنظمات القومية العربية كانت نابعة من قاعدة جماهيرية من سكان البلاد الاصليين المجمعين فعلا على هذه المطالب (ماعدا لبنان جزئياً) . اما المنظمات الصهيونية فقد كانت ، على العكس ، تواجه عداء أغلبية البلد الذي تريد ان تقيم فيه دولة ذات سيادة . وكان عليها لتغيير هذا الوضع ، ان ترفع نسبة اليهود بين السكان (وكانت هذه النسبة تزيد ببطء ١ر١١٪ عام ١٩٢٢ ، ١٧ر٧٪ عام ١٩٣١ ، ٢٨٪ في نهاية عام ١٩٣٦) مستغلين لهذه الغاية رضا الدولة المنتدبة . اما الحل الاخير الممكن وهو الاستيلاء العسكري الذي كان ينادي به الحزب التحريفي فقد بدا غير قابل للتنفيذ . فبريطانيا العظمى التي اظهرت

انها مهتمة للعداء العربي للمشروع الصهيوني خلال السنوات العشرين السابقة اهتماماً متزايداً قد انتهت ، بعدما فكرت في حلول تقوم على التقسيم واحداث دولة يهودية في فلسطين ، الى الاعلان بصراحة في الكتاب الابيض الصادر في ١٧ أيار ١٩٣٩ عن عدائها لكل حل من هذا النوع ومن باب أولى لقيام دولة يهودية تشمل فلسطين المنتدبة كلها . وفكرت ان تقيم خلال عشر سنوات دولة فلسطينية مستقلة على الا يتجاوز اليهود فيها ثلث السكان . وقد حدت لهذه الغاية من الاستيطان وبيع الاراضي .

غير ان احداث اوربا كانت تجعل الحد من الهجرة امراً لا يطاق . وكانت القاعدة اليهودية قد اصبحت على جانب من القوة يمكن من التفكير بقيام البيشوف بعمل مستقل من النوع الذي كان التحريفيون يبشرون به منذ زمن طويل . وقدرت الوكالة اليهودية عدد يهود فلسطين في نهاية عام ١٩٤٣ بـ ٥٣٩٠٠٠ من أصل مجموع السكان البالغ (١٦٧٦٥٧١) أي ٣٢٪ ولم يكن قيام الدولة اليهودية إلا رغم ارادة بريطانيا العظمى وكانت قوى البيشوف تبدو كافية لاقامتها .

كان للسياسة العامة الصهيونية وجهان ينبثقان كلاهما من وضع الصهاينة كعامرين يؤلفون اقلية وسط سكان معادين وتحت سلطة دولة ثالثة . وازاء انكلترا التي كان عليها ، على الاقل ان تراعي مشاعر العرب الذين كان يقوم عليهم جزء من سياستها العالمية وازاء

الرأي العام العالمي كذلك كان لابد من الاستمرار في السياسة الهرزلية وسياسة مابعد هرزل التي تقضي «باظهار القضية كلها في ابعد مظاهرها عن الأذى » . وأباحوا لأنفسهم فيما بعد أن يكتبوا : «لقد بقي هدف الصهيونية ثابتاً لم يتبدل من عهد هرزل وهو تحويل فلسطين الى وطن يهودي وتأسيس دولة يهودية . ولم يفصح عن هذا الهدف بوضوح دائماً بسبب دواعي التكتيك السياسي . غير ان تطور فلسطين والقضية اليهودية بوجه عام قد بلغ درجة من النضج اصبح معها الوضوح ضرورياً[1] » وكان ذلك عام ١٩٤٦ غداة الحرب التي نجمت منطقيا عن الوضع السابق . غير ان ارتور ربان وهو قائد من ابرز وأذكى القادة الصهيونيين ونصير لسياسة التفاهم مع العرب — وكان في هذه القضية من الاقلية في المجلس التنفيذي — كتب قبل اثنتي عشرة سنة :

« كان بعض الصهاينة وبعض محرضي الصهيونية من غير اليهود فقط يفكرون بفلسطين كدولة يهودية في زمن تصريح بلفور بالرغم من ان هذا التصور لم يكن من الممكن العثور عليه في البرنامج الصهيوني ، ولا يزال الجناح التحريفي في المنظمة الصهيونية ينادي بذلك رسمياً حتى اليوم . وتعبير الدولة اليهودية تعبير مبهم غير انه يمكن ان يفسر كدليل على رغبة اليهود في حكم البلاد . وقد هدأ

(١) المرجع السابق نفسه ص ١٣٩

مخاوف العرب من هذا الموضوع الكتاب الابيض الذي طبعته الحكومة البريطانية عام ١٩٢٢ قبل ان يناط بها الانتداب بقليل وحددت فيه سياستها في فلسطين ومفهومها عن الوطن القومي اليهودي وقبلت المنظمة الصهيونية الكتاب الابيض. وكان يترتب على تصريح الحكومة البريطانية هذا ان يرضي العرب حتى اذا رفض اليهود قبوله ولكن اليهود انفسهم حاولوا تهدئة مخاوف العرب . وعبرت المؤتمرات الصهيونية المعقودة في ١٩٢١ ، ١٩٢٥ و١٩٢٩ عن الرغبة في التعاون مع العرب واعترفت بالمبدأ القائل بألا تسيطر هذه القومية او تلك في فلسطين او يسيطر عليها بل ان تكون هنالك دولة يتسنى فيها لليهود والعرب ان يعيشوا جنباً الى جنب كقوميتين متساويتين في الحقوق (١) » .

وقصة الكتاب الابيض هي بالفعل قصة مقيدة كتصوير لما يسمى بالعربية الكتمان أو التقية في الوسط اليودي وهو الاخفاء المنظم الذي كان يارسه الصوفيون المنحرفون تجاه افكارهم واهدافهم.

إن هذا الكتاب الأبيض الأول أو مذكرة تشرشل المطبوع في ٣ حزيران عام ١٩٢٢ كان في الواقع برنامجاً رسمياً يعرض كيف تنوي حكومة جلالته أن تطبق الانتداب الذي سيعهد به اليها . وقد ادت ردود الفعل العنيفة العربية في فلسطين وخارجها الى تفهم

(١) كتاب ارثور ريبان « اليهود في العالم الحديث» الترجمة الفرنسية باريس . بايو ١٩٣٤ ص ٣٧٠ — ٣٨٢

الآخرين لضرورة اخذ هذه المعارضة جدياً بعين الاعتبار وتفسير تصريح بلفور بهذا الاتجاه . لقد جاء فيه :

« يذهبون الى حد القول ان فلسطين ينبغي ان تصبح يهودية بقدر ما تعتبر انكلترا انكليزية ؛ وان حكومة جلالته تعتبر ان مثل هذا الأمل لايستند الى شيء ... فنصوص التصريح (بلفور) ... لاتشير الى ان فلسطين كلها ينبغي ان تحول الى وطن قومي يهودي بل الى وجوب تأسيس وطن كهذا في فلسطين » . ولم تفكر الحكومة البريطانية « بمحو أو اخضاع السكان العرب ،اولغتهم او تقاليدهم في فلسطين » وأخيراً « عندما يسألون ماذا يجب ان يفهم من تطوير الوطن القومي اليهودي تمكن الاجابة بأنه لايقصد بذلك فرض الرعوية اليهودية على سكان فلسطين جميعاً بل تطوير الجماعة اليهودية الموجودة بمساعدة يهود الاجزاء الاخرى من العالم حتى تصبح هذه الجماعة مركزاً يمكن ان يثير اهتمام الشعب اليهودي بمجموعه على مستوى الدين والعنصر وان يفاخر به » وفصلت الاردن عن فلسطين أي عن المنطقة التي لايمكن ان يحدث فيها التوسع الصهيوني. وسيركن الى الحد من الاستيطان وفق « قدرة البلاد الاقتصادية على امتصاص القادمين الجدد » . وكانوا بالمقابل يؤكدون منذ البدء على ان تصريح بلفور لايمكن ان يمس وان اليهود سيكونون في فلسطين

بناء على حق لا من قبيل التسامح [1] .

وحثت الحكومة البريطانية المنظمة الصهيونية على اعلان موافقتها الرسمية على هذه الوثيقة قبل ان يكتسب الانتداب البريطاني على فلسطين الصفة الرسمية وجعلت من ذلك شرطاً . وكانت المنظمة تحرص قبل كل شيء على ان تتبنى عصبة الامم نص هذا الانتداب الذي يعترف رسمياً في نطاق القانون الدولي بشرعية تصريح بلفور ويكرس الحماية البريطانية الضرورية جداً . وقررت بالاجماع ان تلجأ الى كتمان قناعتها « بأن الكتاب الابيض اذا طبق بشرف وضمير يمنحنا الاطار لتكوين اغلبية يهودية في فلسطين ولتشييد دولة يهودية » . هكذا كان يفكر حتى اكثر الصهيونيين تطرفاً المؤسس العتيد للحزب التحريفي . وقد استقبل ويزمن رد فعله بسرور لأنه كان يخشى تصلبه [2] .

قدم مشروع النص الذي يعطي بريطانيا العظمى الانتداب على فلسطين الى عصبة الامم اذن مع الموافقة الصهيونية على تفسير تصريح بلفور الذي يستبعد الدولة اليهودية وعلى هذا صدقته العصبة في

(١) كتاب ربيان المذكور ص ٣٨٠ وما بعد ، وكتاب ت . ر . فريول « الانكليزي واليهودي والعربي في فلسطين » الترجمة الفرنسية . باريس . دار نشر فرنسا ١٩٣٩ ص ١٢٢ ومابعد .

(٢) ويزمن « Trial and Error » الطبعة المذكورة ص ٣٦١ .

٢٤ تموز ١٩٢٢ . غير ان القيادة الصهيونية لم تقبله الا وهي تنوي ان تحرفه وتستخدمه لاقامة وضع يجعل يوماً ما من المحتوم انبجاس الدولة اليهودية التي كانوا يفكرون بها دائماً ولا يتحدثون عنها (رسمياً) ابداً . ولم تكن هنالك الا اقلية من القادة السياسيين الصهيونيين تهدف بصراحة وجرأة الى قيام الدولة الثنائية القومية المحافظة على التوازن بين القوميتين ، تلك الدولة التي كان يلوح بها ارتور ربيان على انها الهدف المقبول والرسمي للمنظمة الصهيونية

غير ان الصهاينة المتطرفين كانوا يشجبون هذا التكتم باعتباره مشئوماً يجر القادة موضوعياً الى القبول بفكرة الانتقال التدريجي غير المؤلم ، المسالم ، الخالي من المشكلات نحو الهدف النهائي . هذا هو رأي جابوتنسكي الفاقد الصبر (الذي وقع مع ذلك كتاب الموافقة على مذكرة تشرشل) ورأي الحزب التحريفي الذي اسسه مطالباً باعادة النظر بالانتداب جذرياً وبانشاء دولة يهودية على ضفتي الاردن باسرع ما يمكن ، ولو كان ذلك بالاساليب التسلطية والعسكرية وبتشكيل فرقة يهودية تمكن من بلوغ هذه الاهداف وتحمي حركة الاستيطان الجماعي دون الاهتمام بالانعكاسات العربية . وقد كتب استاذ يهودي نمسوي يقول : « لا يعتبر التحريفيون تأكيدات الفئات الصهيونية الاخرى بأنها ترمي الى الهدف نفسه ولكنها لا تصرح

بذلك لاسباب دبلوماسية تأكيدات جديرة بالثقة [1]» والحقيقة ان شهوة السلطة عند جابوتنسكي الذي كان يرغب في ان يحل محل ويزمن على رأس المنظمة الصهيونية (مما فضحه ويزمن [2]) قد دفعته الى زرع الشكوك غير المبررة في مشاعر القيادة القائمة .

ولكن القيادة الصهيونية التي كانت تؤكد للعالم الخارجي رغبتها في تحاشي تشكيل دولة يهودية قومية في المستقبل كانت تسير

---

(١) ف . ستين في (Vallentine's Jewish Encyclopedia) نشره آ . م . هيامسون و آ . م سلبرمان . لندن . سافيرو . فالنتين وشركاه ١٩٣٨ . ص ٥٥٢ .

(٢) كتاب ويزمن « Trial and Error » ص ٤٢٠ . ان نشاط هذا الشخص المسعور في اسرائيل حاليا مقلق . لقد اوردت عام ١٩٥٣ (عن كتاب Where the ghetto ends اين ينتهي الجيتو) ، تأليف ل . دفنز . بالانكليزية . نيويورك آ . هـ . كينغ ١٩٣٤ ص ٢٣٣) النشيد الذي كانت تنشده الشبيبة البولونية الذهبية وهي تعرض بذتها السمراء قاذفة بالحجارة واجهات الصحف اليهودية اليسارية : « المانيا لهتلر ! – ايطاليا لموسوليني ! – فلسطين لنا ! – عاش جابوتنسكي ! ». وكتب يهودا . ل ، مانيس عام ١٩٤٦ متحدثا بمرارة عن مشاريع جابوتنسكي (السابقة لاوانها) : « انها لاقت لدى البولونيين ترحيبا ، وهؤلاء البولونيون الذين يقومون الان بالمذابح كانوا يريدون التخلص من يهود بولونيا فقبلوا بالتالي خطته لاجلائهم » (من كتاب Towards union in Palestine نحو الاتحاد في فلسطين . اورشليم . شركة احود ١٩٤٧ ص ١٧) ولقد لقيت الحركة التحريفية بالفعل دعما فعالا من اليمين البولوني الى حوالي عام ١٩٤٨ .

في الداخل و كأن النهاية الطبيعية لمشروعها إنما هي قيام دولة كهذه . وكان ذلك محتوماً تقريباً لأن مخطط المشروع الصهيوني كان يرمي بوجه الدقة الى اصلاح وضع اليهود كاقلية مشتتة غير منظمة او منظمة فقط كطائفة خاضعة لدولة غير يهودية ومعرضة لخسارة اعضائها بالاندماج اذا كانت مفتوحة وللاضطهاد الجماعي اذا كانت مغلقة . واجتذب المشروع بشكل قوي اليهود الذين استهواهم هذا البرنامج خصوصاً في البداية عندما كانت شروط الاقامة في فلسطين قاسية . ولذا فقد شكل يهود فلسطين منذ البدء « يشوف » اي مؤسسة اسكان ، مستعمرة متماسكة بقدر الامكان ومنغلقة على نفسها . كتب قائمقام الناصرة منذ عام ١٩١٠ وهو وطني عربي شنقه بعد خمس سنوات جمال باشا :

« لايختلط اليهود بالعثمانيين ابداً ولا يبتاعون منهم شيئاً . ان لهم مصرفهم الخاص وقد اسسوا في كل قرية وفي كل مستعمرة لجنة مركزية ومدرسة ... ولليهود ايضاً علم ازرق تتوسطه نجمة داود وهم يرفعون هذا العلم بدلاً من العلم العثماني ... ويصرح اليهود عندما يخاطبون السلطات الادارية بانهم مسجلون في السجلات العثمانية (اي أنهم مواطنون عثمانيون) وهذا كذب وخداع ... [1] »

---

(١) كتاب ن . مندل « الترك والعرب والاستيطان اليهودي » بالانكليزية ص ٩٥ وما بعدها

نص صك الانتداب الممنوح لبريطانيا العظمى في مادته الرابعة « على الاعتراف الرسمي بجهاز يهودي لائق وتخويله الحق في ان يدلي برأيه للسلطة في فلسطين ويتعاون معها في كل قضية اقتصادية او اجتماعية او غيرها من شأنها ان تؤثر بقيام الوطن القومي اليهودي وبمصالح السكان اليهود في فلسطين » . وهذا الجهاز يجب ان يكون المنظمة الصهيونية باعتبار ان تنظيمها وتشكيلها صالحان ، باعتراف الدولة المنتدبة [1] »

كان اليهود في فلسطين الواقعة تحت الانتداب ، بحكم الاوضاع ، على شيء من الاختلاط بالعرب والانكليز خصوصاً في جهاز الحكومة . وكانت مختلف الفئات العنصرية والدينية تتمتع بقدر ما من الاستقلال الذاتي الداخلي وفقاً لما بقي معمولاً به من الاعراف والنظريات العثمانية . وهذا مايسمونه نظام الطوائف . ولا يزال مرعياً اليوم جزئياً في لبنان واسرائيل في ميدان قانون الاحوال الشخصية . غير ان الطائفة اليهودية قد شكلت ، منذ دخول الانكليز الى القدس في كانون الاول ١٩١٧ ، منظمة سياسية فعلا مع لجنة موقتة حل محلها في تشرين الاول ١٩٢٠ ضرب من المجلس التاسيسي مع لجنة تنفيذية . وقد ثبتت المنظمة بتشريع بريطاني (٣٠ كانون الاول ١٩٢٢) عدل في غرة آذار

(١) كتاب روسي « Documents » بالايطالية ص ١١٤

١٩٣٠ بعد مفاوضات دائبة مع ممثلي اليشوف . وكانت اليشوف (باستثناء اعضائها المستنكفين) تنتخب نواباً لمجلس تمثيلي (Aséfat han-nivkhurim مجلس النواب) . ثم ينتخب هذا المجلس بدوره كل سنة لجنة عامة (Vaad Leoumi اللجنة القومية) مسئولة امامه ، وهي نفسها تقوم بانتقاء مجلس تنفيذي من اعضائها . وهكذا كان لليشوف حكومتها الخاصة التي تمارس صلاحيات الحكومة تقريباً على من يعترفون بسلطتها (كان المتطرفون المتدينون المعادون للصهيونية لايشاركون في ذلك مثلا) . وكان المجلس مخولاً ان يجمع الضرائب من ناخبيه كما كان ينظم فعاليات اليشوف الاجتماعية وهو مسئول عن التعليم العام فيها والتنظيم الديني بشكل غير مباشر . وعلى هذا كان يحق لحكومة اليشوف ، غداة حرب فلسطين ، ان تنظم الخدمة العسكرية فيما بين اتباعها .

وهكذا كانت اليشوف تشكل كتلة تفرق مابينها الخصومات الداخلية التي غالباً ماتكون خطيرة ولكنها تبقى جميعها صفاً واحداً ازاء الخارج . وهي مزودة باجهزة تعبر عن وحدتها التقريبية هذه . وكان العرب مقابل ذلك مقسومين الى عدة طوائف دينية مسلمة ومسيحية ولم يكن يربط بينهم سوى احزاب سياسية متقلبة ومتعارضة . وكانت تجمع مابين اليهود في الميدان الاقتصادي ايضاً شبكات شبه مستقلة : تعاونيات ، منظمة مركزية للتوزيع ،

نقابات متجمعة في الهستدروت القوية التي كانت تعمل ايضاً كصاحب مشروع رأسمالي وصاحب مصرف وشركة ضمان وكملاك عقاري وتطبق نوعا من الضمان الاجتماعي . وقد تقدم احد اللبنانيين لكلية الحقوق الفرنسية في بيروت عام ١٩٤٦ باطروحة دكتوراه عن « العناصر المكونة للدولة اليهودية في فلسطين » بين فيها خصائص الدولة عند اليشوف (١) .

وهكذا اصبح ، كما برهنا سابقاً ، من الممكن الشروع بمعركة الاهداف النهائية بعد اقامة القاعدة التنظيمية للدولة اليهودية وبعد تزايد القاعدة السكانية بالاستيطان الجاري بفضل الانتداب الانكليزي والحماية التي كان يوفرها حتى بلغت هذه القاعدة ثلث مجموع سكان البلاد ، وقد تم ذلك في فترتين . وبالرغم من قلة عدد الصهيونيين الذين وفدوا من بريطانيا العظمى فان هذا البلد قد لعب ازاء فلسطين دور الوطن الام لمستعمرة اسكان ، لانه شئنا ام ابينا ، قد رعى تكوين ونمو اليشوف كما حمى فيما مضى مثلا الاستعمار البريطاني في اميركا الشمالية وكما حمت فرنسا الاستعمار الفرنسي في الجزائر . ومن الامور الكلاسيكية في مثل هذه الاوضاع ان

(١) اطروحة روبير عبده غانم « العناصر المكونة للدولة اليهودية في فلسطين » بيروت . شركة الطباعة والنشر ١٩٤٦ (كلية الحقوق في جامعة ليون . مدرسة الحقوق الفرنسية في بيروت) تاريخ الامتحان ١٦ نيسان ١٩٤٦

تحدث في الغالب توترات بين الوطن الام والمستعمرة . فالعامرون كثيراً مايضيقون بالنظم التي يفرضها الوطن الام ، تلك التشريعات التي لايحصونها او التي لايحصونها كلها على الاقل والتي تبدو لهم في الغالب غير متلائمة مع الاوضاع المحلية . وهذا مايحدث خصوصا عندما يضطر الوطن الام ، وهو يفكر في سياسة دولية على المستوى العالمي ، ان يحسب حساباً لمصالح وتطلعات السكان الاصليين . ان قضية عدم تحدر العامرين اليهود الفلسطينيين من اصل بريطاني وواقع امتلاكهم وسائط للضغط على الحكومة البريطانية ولكن اقل بكثير مما تمتلكه مثلا (الاقدام السوداء) بالنسبة للحكومة الفرنسية قد جعلت لندن اكثر استعداداً للتضحية بهم . فتضافر الظروف قد جعل المصالح العربية اثمن في نظر الانكليز من مصالح اليشوف . ومجرى الاحداث غداة الحرب قد حمل البريطانيين على ترك انصاف الحلول التي اخذوا بها منذ بضع سنوات وعلى طبع الكتاب الابيض الذي وقف بصراحة ضد الامال الصهيونية وان لم يرض العرب تماماً .

وكان التمرد الاول موجهاً اذن ضد بريطانيا . واعطى الحد من الاستيطان في ظروف مذابح اليهود الكبرى القاسية في اوربا صدى انسانياً لاكفاء له للدعوة الى الكفاح في اليشوف وخارجها ايضاً . وقد جرى هذا الكفاح ، كما هو معلوم ، باساليب ارهابية

وهي الاساليب الوحيدة المتوفرة للعامرين اليهود في تلك الاونة . دعم هذا الكفاح تماسكهم وتنظيمهم العسكري السري نوعاً ما تدعيما قوياً . كانت تلك الحرب حربا استقلالية ولكنها ايضاً حرب اليشوف ضد بريطانيا العظمى . وبقي سكان البلاد الاصليون (ثلثا السكان) متفرجين لان مطامحهم الخاصة في الاستقلال كانت تمنعهم من الانحياز الى هذا المحارب او الى الاخر .

انطلقت الدعوة الى الكفاح الجذري ضد البريطانيين من الفئات اليهودية المتطرفة (الارغون او اتزل وخصوصاً ليهي اوفريق سترن) التي كانت تعتبر البريطانيين مضطهدين حقاً تقابلهم ردود فعل كلاسيكية يقوم بها مستعَمرون ضد مستعمرين يبقون احد الشعوب بالقوة تحت النير (١).

وقد ذهب منطق مؤسس ليهي ابراهام سترن كما يبدو ، الى حد التبشير بالتحالف مع كل اعداء بريطانيا العظمى بما في ذلك

(١) كتاب غيولا كوهن الناطقة بلسان فريق سترن « ذكريات فتاة عنيفة » هو وثيقة كاشفة تماماً ، اقتبس النص الفرنسي م . بوليتي باريس . غاليار ١٩٦٤ (مجموعة ريح العصر) انه صرح الهستيريا القومية المجنونة تقريبا . لاتخامرها دقيقة واحدة فكرة ان العرب الذين تعيش بينهم والذين تنطق بلسانهم كيمنية يمكن ان يكون لهم مايقولونه حول مصير بلادهم .

الاتحاد السوفياتي وهتلر (٢) . ولم يتسن لهذا الاتجاه الفكري ان يولد الا في وضع يختلف تماماً عما كان قبل عشرين سنة عندما كان الانكليزي هو الحامي لسكان مبثوثين وسط عالم عدو . وهوحام قد يكون ماكراً اوسيء القصد ، حام لايغني عن ان ينظموا بانفسهم دفاعهم المستقل ولكنه حام لايمكن الاستغناء عنه . وليس في تأثر الشبان خصوصاً بهذه الحركات مايدهش . وامتد اتجاههم هذا رويداً رويداً الى مجموع الجماهير اليهودية في اليشوف المعبأة في الهاغاناه الجيش شبه الرسمي المنبثق من فرق الدفاع الذاتي التي كانت تكتفي عادة بالدفاع .

لقد اجتذب الكفاح في سبيل حرية استيطان لاجئي اوربا النازية البؤساء الناس كلهم . اما التضييقات البريطانية وقمع الارهاب مع ديالكتيكه المعتاد فقد جعلت النير الامبريالي الانكليزي بغيضاً

(٢) جاء في كتاب بن زوهار « بن غوريون النبي المسلح » بالفرنسية باريس فايار ١٩٦٦ ص ٩٩٠ عن كتاب غيولا كوهن من فريق سترن « كانت بريطانيا العظمى سابقاً كلها ابتسام وكانت تعين لنا العدو الذي نجب محاربته : المانيا النازية . ولكن استرن المتنبيء قد استطاع ان يكشف المكر وراء الابتسام وفضح العدو الحقيقي الذي يجب القضاء عليه وهو بريطانيا العظمى « ذكريات فتاة عنيفة ص ١٢٧ وما بعد » و (كل دولة تهمها تصفية الامبريالية البريطانية يجب ان تعتبر حليفاً طبيعياً) ص ٢٨٩ .

بالنسبة للجميع . ورأى القادة الصهيونيون في الوهلات الأولى من هذا العهد ان ساعة الاعلان عن أهدافهم بصراحة قد حمت . فتبنت المنظمة الاميركية الصهيونية في ١١ أيار ١٩٤٢ في اجتماع عقد في فندق بلتيمور في نيويورك البرنامج الذي قدمة دافيد بن غوريون رئيس اللجنة التنفيذية في الوكالة اليهودية . وكان برنامج بلتيمور هذا يطالب بانشاء دولة يهودية في فلسطين كلها واحداث جيش يهودي ورفض الكتاب الأبيض الصادر في ١٩٣٩ وهجرة غير محدودة تحت اشراف الوكالة اليهودية وحدها . وصدق هذا المشروع في ١٠ تشرين الثاني ١٩٤٢ اللجنة الصغيرة في الهيئة العامة للمنظمة الصهيونية في اورشليم فأصبح بذلك برنامج الحركة الصهيونية الرسمي . ولم يبق من فارق من الآن فصاعداً بين القادة الصهيونيين الرسميين وبين المتطرفين الا في التكتيك الذي ينبغي اتباعه لحمل بريطانيا العظمى على القبول بالهدف المشترك المجمع عليه : الضغط الوحشي بالأعمال الارهابية او خليط من الدبلوماسية قائم على الخدمات المبذولة وعلى المساومة .

وأصبح برنامج الدولة الثنائية القومية المتوازنة الذي اغرى قبل عشر سنوات اقلية لا يستهان بها من اليشوف ، عتيقاً لم يبق على مساندته سوى فئات صغيرة من المثاليين وفئات اليسار المتطرف . وأدى اذكاء الصراع ضد « الطغيان البريطاني » والشعور البالغ بالرضا عن المهمة المقدسة مهمة انقاذ السالمين من مأساة يهود اوربا ،

الى رد القضية العربية الى الصف الثاني ونسيانها تقريباً . وان المرء ليصدم من ان يرى ، وهو يقرأ المذكرات عن المعركة الارهابية ضد بريطانيا ، الى أي حد كان الشبان المتحمسون الذين يريدون انقاذ « بلادهم » من الطغيان يجهلون « السكان الاصليين » الاشخاص المتمركزين في صورة البلاد ، يجهلونهم كرعايا على الأقل يمكن ان يكون لهم مطالب خاصة في هذه البلاد نفسها . والمساندة الانكليزية المتزايدة للمطالب القومية العربية التي كان يعبر عنها على الاخص الملوك وكبار مالكي الاراضي (والتي كانت تترجم التطلعات العميقة للشعب كله) قد جعلتهم يعتبرون عادة هذه المطالب صادرة عن دمى تحركها انكلترا . وكانوا يرفضون وبغضب فكرة التقسيم التي كان يرفضها العرب أيضاً لأسباب معاكسة . وكان يفترض ضمناً انه سيكون امام العرب في الدولة الفلسطينية المقبلة التي هودتها الهجرة غير المحدودة ان ينسقوا بين التبعية والرحيل .

ولم يضعف ذلك من احتمال الحرب مع العرب كنتيجة منطقية لبرنامج الدولة اليهودية ، تلك الحرب التي لا تستطيع الحيلولة دونها الا قوة خارجية . وهذا ما اتضح لبعض العقول النادرة التي حافظت على صفائها بينما كانت اكثرية الصهيونيين تتحاشى النظر الى المشكلة . وقد كتب الفيلسوف اليهودي الكبير مارتن بوبر ١٩٤٦ ينعي على الحركة الصهيونية الرسمية سياستها القائمة في أساسها على البحث عن اتفاقات دولية بدلاً من السعي الى اتفاق محلي في فلسطين مع

العرب اصحاب العلاقة : ان برنامج بلتيمور «الذي فسر بأنه يعترف بهدف الاستيلاء على البلاد بواسطة مناورات دولية لم يثر فقط غضب العرب ضد الصهيونية الرسمية بل جعل كل الجهود الرامية الى احلال التفاهم بين اليهود والعرب مشبوهـــة في نظر العرب الذين كانوا يتصورونها تخفي المرامي الحقيقية المعترف بها رسمياً[1] »

وكتب بهذا الموضوع يهوذا . ل . مانيس رئيس جامعة اورشليم العبرية :

« لا يمكن تحقيق الدولة اليهودية ، اذا قدر لها ان تكون الا بالحرب .. يمكنك التحدث مع العربي عن اي شيء ولكنه لا يمكنك التحدث اليه عن الدولة اليهودية . وذلك لأن الدولة اليهودية تعني ، حسب تعريفها ، ان اليهود سيحكمون اناساً آخرين يعيشون في هذه الدولة اليهودية .. وقد عرف جابوتنسكي ذلك منذ أمد بعيد . انه كان نبي الدولة اليهودية . لقد أبعد جابوتنسكي وأدين وفصل. غير اننا نرى الآن ان الحركة الصهيونية كلها تقريباً قد تبنت وجهة نظره. قال في كتاباته الأولى : « هل رأيتم على مدى الزمن شعباً يعطي بلده بمحض ارادته ؟ وعرب فلسطين كذلك لن يتخلوا عن سيادتهم.

---

(١) مارتن بوبر « The Bi - National Approach to Zionism » (من كتاب Towards Union in Palestine. essays on Zionism and Jewish - Arab Coopération) بوبر ومانيس وسيمون اورشليم شركة أحود ١٩٤٧ ص ٨ - ٢٣

بدون عنف .. هذه الأشياء كلها قد تبناها الآن الذين فصلوه[1] »

ان الاعمال الارهـــابية وقوة ضغط المنظمة الصهيونية على الولايات المتحدة بشكل خاص قد اقنعت البريطانيين ان الأحسن هو ان يذهبوا ويتركوا اليهود والعرب وجهاً لوجه كما ان قوة اليشوف المكتشفة وقوة قاعدتها المحلية وتصميمها على الاستقلال وشدة فاعلية حربها ضد الانكليز قد اقنعت دول العالم ان تعايشها السلمي مع العرب ضرب الطوباوية حتى ان ستالين نفسه فكر لحظة في ان يراهن عليها كقوة مناهضة لبريطانيا ، وربما فكر في ان يجعل الاتحـــاد السوفياتي يخلف بريطانيا كحام لها . وصوتت هيئة الأمم المتحدة في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٧ على مشروع تقسيم فلسطين بين العنصرين وتبين انها عاجزة عن مراقبة تطبيقه من الخـــارج . وقد اصبح الاصطدام الدموي حتمياً بعد ان اعلن البريطانيون عن رغبتهم في سحب قواتهم من فلسطين في ١٥ ايار ١٩٤٨ ، وهذه القوات هي العامل الوحيد القادر على فرض السلام .

وفي هذا الصراع الثلاثي الدرجات وبعد ان انتهت معركة

---

(١) يهوذا . ل . مانيس في « A. solution through force » المجموعة نفسها ص ١٤ — ٢١ ومانيس وهو انسان ذو ضمير حي قد هرب من دولة اسرائيل الفتية ليموت في الولايات المتحدة بعد أن اصابه اليأس لاخفاق آرائه .

المضطهد من الوطن الأم اصبح من الممكن بدء المعركة ضد المضطهد بالقوة . ومن المؤكد ان الخروج من الوضع الاستعماري كان ممكناً حتى هذه المرحلة وكذلك دخول حلبة السياسة الدولية كدولتين اعترفت بهما هيئة الامم المتحدة . وينحي الصهيونيون على العرب باللائمة لعدم انتقاء هذا الحل بقبولهم قرار الامم المتحدة وفيه حتى ضمانة الاتحاد السوفياتي التقدمي .

أنا لا أحاول هنا ان أحدد ما كان يمكن او يجب عمله وفق معايير اخلاقية مختلفة ولكني احاول ان اشرح ردود الفعل العربية التي بقيت في الغالب غير مفهومة في اوربا وأبين كيف يمكن ردها الى طبيعة الوقائع . ان القبول بقرارات الامم المتحدة كان معناه بالنسبة للجماهير العربية الاستسلام بلا شروط لأمر تصدره اوربا . انه استسلام من نوع استسلام الملوك الزنوج او الصفر في الجيل التاسع عشر امام سفن المدفعية المسلطة على قصورهم . لقد ارسلت اوربا بمجموعها عامرين هدفهم الاستيلاء على جزء من ارض الوطن . وفي الفترة التي كان يمكن فيها للمقاومة المحلية ان تضع هؤلاء العامرين خارجاً بسهولة اوقف هذه المقاومة البوليس والقوات البريطانية التي انتدبتها مجموعة الامم الاوربية الامريكية . واطفئت هذه المقاومة بالتأكيدات الخداعة بان الأمر لا يعدو توطين بعض الارهاط البائسة غير المؤذية المعدة للبقاء اقلية توطيناً سلمياً . وعندما اقتضح

بعد ذلك هدف هذه الارهاط الحقيقي للعموم وتكشفت قوتهم الجماعية التي تشكلت ببطء في ظل الانتداب اراد العالم الاوربي الامريكي الذى التقى على ذلك رغم خلافاته الداخلية ، من الاتحاد السوفياتي الاشتراكي الى الولايات المتحدة الرأسمالية المتطرفة ، اراد أن يفرض على العرب قبول الامر الواقع بصمت . وكانت تصفية الحرب الثانية تكراراً لخدع الحرب الاولى بالنسبة للعرب . وكما جرى في السابق فقد اخلفت ، بعد بلوغ النتيجة ، الوعود التي قطعت للحصول على المساعدة او على الاقل على الحياد من قبل حلف خبيث من الاوربيين متحد في تواطئه كغني في وجه شعب منحهم بعض الثقة . ألم ينص صك الانتداب نفسه عام ١٩٢٢ على ان «لن تمس حقوق واوضاع الفئات الاخرى من السكان» (غير اليهود) (المادة ٦) ، ألم يعد الرئيسان الاميركيان روزفلت وترومان في رسائل موجهة الى ابن سعود بتاريخ ٥ نيسان ١٩٤٥ و ٢٨ تشرين الاول ١٩٤٦ الا يتخذ اي قرار يتعلق بفلسطين بدون تشاور جامع للعرب واليهود والا يقرر اي شيء يكون ضد المصالح العربية (١) ؟ لقد نكلوا

(١) مجلة The Middle East الشرق الاوسط . ماكتبه . ج . لنكوفسكي ص ٥٣ العدد رقم ٩ . وقد صرح من جهة اخرى احد البرلمانيين الامريكيين وهو خارج من مقابلة مع روزفلت : « اشعر ان الرئيس سيكون موسى الجديد الذى سيقود ابناء اسرائيل الى خارج الصحراء » (Palestine post ٦ آذار ١٩٤٤) .

بهذه الوعود كلها . ولذا لم يكن بمقدور اي عربي ان يتنكر بصراحة لجواب اللجنة العربية العليا في فلسطين :

« ان كل محاولة من قبل اليهود او اي دولة اخرى او مجموعة من الدول لاقامة دولة يهودية على أرض عربية تعتبر عملاً تنكيلياً وتقاوم بالقوة المعتبرة في حالة دفاع مشروع »[1]

ولم يعتبر احد من البلدان العربية حرب فلسطين كحرب تحريرية قام بها ثوريون يهود مناهضون لبريطانيا اي مناهضون للاستعمار ضد اقطاعيين مستغلين يسوقون امامهم فلاحين جائعين او بلهاء لانقاذ مصالحهم الطبقية كما تصورها رواية شائعة جداً في اليسار الاوربي (والتي سبق لي مناقشتها منذ ثلاث عشرة سنة الشتائم في مجلة الازمنة الحديثة) وكما اراد ان يصورها عبد الرزاق عبد القادر من خلال رؤيا للاشياء هاذية . ولم يكن من الممكن ايضاً اعتبارها معركة بين دولتين سبق استعمارهما كالمعركة بين الباكستان والهند بسبب كشمير مثلا . ففي مثل هذه الحالة الأخيرة يكون كل من الفريقين مدعوماً الى حد ما لأسباب مستترة من قبل هذه المجموعة من الدول او الأخرى مع تقلبات ناجمة عن تطور الموقف الدولي والمحلي . ويحاول كل من هاتين المجموعتين ، وكل من هذه الدول ان يستغل النزاع لتقوية نفوذه وهو نفوذ مثأت بدهياً من تفوق

(٢) لنكوفسكي المرجع السابق .

العالم الصناعي التقني والاقتصادي . غير انه ليس بين الفريقين من يرمي الى أن يعهد بالسيادة على جزء من شبه القارة الهندية — الباكستانية الى شعب غريب عن شبه القارة هذا ومتحدر من العالم الاوربي الاميركي نفسه . ان حرب فلسطين ، كما يراها الغرب، هي كفاح ضد اغتصاب امبريالي جديد لأرض شعب مستعمر ، ولا تخلو هذه النظرة من المبررات الموضوعية كما اوضحت .

ولا يمكن لأحد ينظر بعيني عربي من مستوى الجماهير ان ينكر بشرف على الشعب العربي غضبه الفعلي خصوصاً في آسيا العربية المعنية بالأمر مباشرة . ولا يعني ابداً شعور الفلاحين المصريين المجندين بقليل من الاهتمام نحو المعركة او بقليل من التفهم لها أي عطف على اليهود . فكل العناصر المهتمة بالسياسة ، ولو قليلا، بحكم وضعها او ترتيبها ، كانت ترى امامها غازياً . صحيح ان الجيوش العربية قد أفادت من بعض الدعم البريطاني على مختلف المستويات، ولكن هذا الدعم السري غير الرسمي كان ضئيلا وكان خلال الفترة المشئومة الفاصلة بين قرار هيئة الامم بالتقسيم وبين الجلاء البريطاني ، خصوصاً، من فعل عسكريين بريطانيين تركوا بدون تعليمات واضحة او تلقوا تعليمات متناقضة . وقد اعتادوا في وهلة الارهاب اليهودي السابقة الطويلة ان يعتبروا اليهود

اعداء [1]. وكتب عن ذلك المؤرخان الصهيونيان البنغوريونيان جون ودافيد كمش : « لم يقيض لليهود ان يفهموا انهم يجنون ثمار الأعمال الأرهابية المستمرة التي تقوم بها المنظمتان المتمردتان: ارغون وفريق شترن [2] » ومن هنا نبعت كثير من القرارات المحلية التي كانت في مصلحة العرب . لقد انذر العسكريون الانكليز العرب في عدد من الحالات بوشوك جلائهم عن الثكنات متيحين لهم غالباً فرصة الاستيلاء عليها . ويبدو ان اسلحة بريطانية كثيرة قد انتقلت حينئذ الى الايدي العربية . ومع ذلك فان التعليمات الواردة من القيادة الى الجيوش البريطانية المحلية كانت تقضي فقط بالتمركز لتجنب كل خسارة جديدة وبحمل ماامكن من المعدات العسكرية وبالانسحاب بأقل مايمكن من الاحتكاكات تاركين كل ناحية للطائفة المهيأة

(١) انظر مثلاً اعترافات الاستاذ كليفورد ... جندي صاحب الجلالة ل. ج. ف. رولاند في صحيفة Ce soir الفرنسية بتاريخ ١٠ نيسان ١٩٤٧ عن تشابك المسؤوليات الانكليزيات على كل المستويات وعما كان يحمل العسكريين الانكليز في فلسطين على ان يعتبروا ان السياسة الموالية للعرب ستتغلب في لندن . راجع عرض ج. ود كمش الوافي (Both sides of the hill, Britain and the Palestine war) لندن سيكير وواربورغ ١٩٦٠ ص ٣٥ ومابعدها .

(٢) ج. و. د. كمش المرجع المذكور ص ٩٤ .

محلياً احسن [1] . والأعمال العسكرية البريطانية الحقيقية القليلة قبل المغادرة انما كانت لمحاولة منع اليهود من الاستيلاء على نقاط المنطقة التي خصت بها هيئة الامم العرب ، كيافا مثلاً (ولم تنجح في ذلك) [2] .

كانت بريطانيا في سياستها هذه تعمل على هدي اعتبارات اوسع مدى بكثير من مساعدة العرب . فقد كانت تستلهم بشكل خاص وضع الحرب الباردة في ذلك الحين والعلاقات البريطانية مع الولايات المتحدة وكذلك الأزمة الاقتصادية الخطيرة التي كانت تهز بريطانيا آنذاك . وانسحب الانكليز في هذه الفترة نفسها من اليونان وبورما والهند [3] . وكانت الوزارات البريطانية المختلفة متباينة في نظراتها حسب العادة ولكنها خضعت للتوجيه السياسي

(١) راجع « Britain's Moment » لونرو ص ٦٣ وما بعد وج. و. د. كمش في كتاب « Both sides » ص ٢١ وما بعد .

(٢) رواية رئيس الأرغون مناحم بيجن لثورة اسرائيل في كتاب « ثورة اسرائيل » الترجمة الفرنسية (موجزة) باريس . بلون ١٩٥٣ ص ٢٨٦ وما بعد . راجع كتاب ج . و. د . كمش « Both sides » ص ٨٢ و ١١٣ ، حالات التدخل لصالح اليهود مذكورة في الكتاب نفسه ص ٨٥ و ٩٤ .

(٣) كتاب « Britain's Moment » لونرو ص ١٦٩ وكتاب ج. و. د. كمش Both sides ص ٨٦ .

الصادر عن مجلس الوزراء : التخلص من الموجلة الفلسطينية . ولم يخطر ببال بعض الأوساط البريطانية إلا بعد لأي ومع تطور الحوادث المحلية المفاجيء ان الفريقين قد ينتهيان الى اللجوء الى تحكيم بريطانيا العظمى في ظروف اسهل بكثير بالنسبة لها من ظروف الانتداب المنقضي . في اليوم التالي لاعـــلان مشروع التقسيم في ٣٠ تشرين الثاني ١٩٤٧ عند الفجر عبرت الاعتداءات العربية عن رفض العرب القبول بالدولة اليهودية . وابتـدأت حالاً حرب العصابات بحضور الجنود البريطانيين الملتزمين بحياد عطـــوف على العرب . وكانت الحرب في البدء على نطاق ضيق نسبياً : قتل فردي يقوم به قناصة كامنون ، نسف عقارات ، قصف متبادل ، هجوم واثئار . وكانت تقوم بهذه الأعمال في البدء الأرغون او الليهي . و «سرعان ما اصبح من العسير التفريق ، في سلسلة الحوادث ، بين الهجمات والاثئارات ولكنها كلها كانت تتفرع من التصميم العربي على رد قرار هيئة الامم المتحدة [1] » كما قال الصهيونيان جود . كمش . وقام متطوعو جيش التحرير العربي البالغون بضعة آلاف بقيادة فوزي القاوقجي ، وقد دخلوا فلسطين منذ عام ١٩٤٨ ، ببعض الهجمات الفاشلة ضد المستعمرات اليهودية . وقد ورت الاغتيالات والمغامرات والمناوشات والمشاجرات التي قام بها هذا الجيش ماقام به اليهود من اعمال انتقامية على نطاق

(١) المرجع نفسه ص ٧٨ وما بعد .

اوسع . وقام بهذه الأعمال في الوهلة الاولى التشكيلتان المتمردتان اليمينيتان المتطرفتان الارغون والليهي او فريق سترن اللتان كانتا تنهان جيش الوكالة اليهودية الرسمي شبه السري الهاغانا بالتقاعس بل بالتواطؤ مع البريطانيين . لقد كان القادة الصهيونيون الرسميون مترددين بالفعل في ترك اللجوء الى الدعم الدولي ، الى الولايات المتحدة وبريطانيا ايضاً في بعض الاحيان تركاً نهائياً آملين ان تؤمن لهم هيئة الأمم المتحدة بطريقة ما الانتقال غير المؤلم الى الدولة اليهودية او ، بأسوأ الحالات ، الى دولة ثنائية القومية مع اغلبيـــة يهودية كبيرة . وكانوا مستعدين عند الضرورة ايضاً للاكتفاء ، في الوهلة الاولى على الاقل ، بالارض التي خصصت لهم في مشروع هيئة الأمم للتقسيم . كانوا في البدء يريدون ، بشكل خاص ، ان يبرهنوا انهم قادرون على الدفاع عن المناطق اليهودية وان الدولة اليهودية بالتالي صالحة للحياة [1] . ان سرطان عدوى التطرف القومي في الجماهير اليهودية ذلك السرطان الذي نظمـــه الارغون والليهي

(١) للوقوف على هدف دافيد بن غوريون وهو التوصل الى اتفاق سري مع الملك عبد الله لتقسيم فلسطين تحت اشراف بريطانيا العظمى التي تابت الى رشدها ، ذلك الهدف الذي كان يجهله مثقفوه والذي يفسر كثيراً من التقلبات المفاجئة الغامضة في الصراع ، راجع الكتاب الذي وضعه اسرائيل بير في السجن ونشر بعد وفاته وعنوانـــه Bnaihon yisrael أي أمين اسرائيل تل أبيب نشر امبكان ١٩٦٦ وخصوصاً الفصل الثاني ص ١١٥ ، ٢١٥ .

وقواه اذى العرب غير النظاميين ثم هجماتهم المنظمة فيما بعد وخصوصاً محاصرة اورشليم اليهودية قد جرت هذه الجماهير ايضاً الى المهاجمة على شكل ردود فعل متناقضة التنظيم وانذارات مثيرة لتنشيط هجمات عربية مرتقبة اولا ولتأمين اكبر جزء ممكن من الارض يوم رحيل البريطانيين اخيراً . وقد شنت الهجمات الرئيسية على يافـــا الجزيرة القائمة وسط الارض اليهودية وفقاً لمشروع هيئة الامم وكانت مسدساً مسدساً الى تل أبيب ؛ كما شنت لفك الطوق عن احياء اورشليم اليهودية (وهي ارض دولية حسب المشروع نفسه) وعن الطريق التي تربطها بالمناطق اليهودية .

عقدت الدول العربية خلال هذه المدة كلها المؤتمر بعد المؤتمر . وكان استعداد معظمها في البدء للتورط بعمق في القضية ضعيفاً . وكانت تأمل ان يكفي عرض عضلات بسيط لحمـــل اليهود على الاستسلام ثم يلي ذلك اتفاق يترك لهم من الارض اقل مما خصتهم به هيئة الامم . وتلمح ايضاً احدى الفكر النادرة المتماسكة التي كانت تبديها بعض الاوساط الحكومية في لندن . اما قرارات التدخل فقد نجمت عن تصادم مصالح الدول العربية ، من اطماع ملك الاردن عبد الله في توسيع رقعة دولته على حساب الضفة الغربية الى رغبة الآخرين في معاكسته او في تقليص مكتسباته على الاقل . وقـد حاول عبد الله مرتين وخلال مقابلات سرية مع غولدا مايرسون ان

يقنع اليهود بالتفاهم معه . ولم تبق مقترحاته ، التي ردت رسمياً ، بدون اثر . واسهمت الاتصالات التي قام بها القسم السياسي في الوكالة اليهودية مع ساسة عرب بارزين من الضعيفي الميل الى الحرب باقناع قادة اليشوف بان لا مجال للخوف من تدخل خارجي . واستهانوا بالاثر الذي يحدثه الخوف من قيام اردن كبرى تحت الحماية البريطانيـة واستهانوا ايضاً وبشكل خاص بالعامل الحاسم الذي جعل التدخل امراً لا محيد عنه وهو ضغط الحركة القومية العربية النشطة على الحكام والساسة [١] .

كان لدى الجيوش العربية النظامية التي دخلت فلسطين ابتداء من ١٥ أيار ١٩٤٨ مخططات هجومية بعيدة المرمى ؛ ولكن هذه الجيوش لم تستطع ان تحتل في النهاية ، الا في حالات استثنائية نادرة ، سوى جزء من المناطق التي تركها مشروع هيئة الامم للعرب [٢] . وكان اكثر هذه الجيوش قادماً من بلاد بقيت طويلاً تحت الاحتلال البريطاني ، وقد جهزت منذ تشكيلها بأسلحة بريطانية . وكان على

---

(١) كتاب « Both sides » تأليف ج. و د. كمش ص ٤٤٤ ـ ٦٤٤ .

(٢) راجع بحث آ. م. غواشون الدقيق « مسؤوليات حرب فلسطين » (منشور في رسالة الشرق ، د. اسات . بروكسل الجزء ٧ عام ١٩٦٥ ص ٣ ـ ٢٨) وكتاب غلوب باشا « جندي مع العرب » الترجمة الفرنسية . باريس . بلون ١٩٥٨ ص ٤٣ وخصوصا كتاب ج و د. كمش « Both sides » و ي . بر « Bittahôn » الفصل الثاني .

رأس الجيش الاردني الذي عرف باسم الجيش العربي (٦٠٠٠ رجل ٤٥٠٠ منهم فقط مهيئون لدخول فلسطين حسب رواية غلوب و ٩٢٠٠ حسب رواية ي بير) الماجور الانكليزي غلوب باشا منذ عام ١٩٣٩ وكان يخدم بوصفه اردنيـــاً . وبلغ قوام الجيوش المشتركة كلها حوالي ٢٥٠٠٠ جندي مقابل عدد مساو تقريباً من الجنود الاسرائيليين الذين كانت خطوط مواصلاتهم اقصر بكثير[١]. الا أن هذا العدد بلغ في تموز ٦٠ ٠٠٠ جندي يهودي مقابل ٤٠٠٠٠ جندي عربي [٢] .

ودحر العرب بفعل مجموعة من العوامل لم يكن الانقسام بين الدول المتحالفة وعدم الخبرة العسكرية والغرور اقلها [٣] . من المؤكد ان جيوسهم النظامية كانت في البدء اغنى بكثير بالاسلحة من الهاغاناه . ولكن الحصار الذي اقرته الأمم المتحدة (بعد ٢٩ ايار) التزمت به بريطانيا العظمى وهي الوحيدة القادرة على تقديم الذخائر

---

(١) كتاب غلوب باشا المذكور ص ٧٣ ومابعدها غير انه يغالي في تقدير عدد الاسرائيليين بـ (٦٥٠٠٠ رجل) ويمكن ، على مايبدو ، الوثوق اكثر بارقام ج. و. د. كمش (Both sides) ص ١٦٠ ومابعدها .

(٢) المرجع المذكور ص ٢٢٣ و ص ٢٣٣ و ٢٤٣ .

(٣) راجع لتكوفسكي « Tht middle East ... » ص ٣٩٨ ومابعدها و . ج و. د كمش (Both sides) مثلا ص ٢١٩ ومابعدها .

وقطع التبديل للاسلحة البريطانية الطراز التي كانت معظم الجيوش العربية تستخدمها [١] .

ولم يكن لدى العرب اي مصنع للاسلحة او للذخائر بينما كان اليهود يصنعون بعض الاسلحة كالهاون وقنابل الهاون . زد على ذلك ان اليهود قد حصلوا ، رغم الحصار ، على تموينات كبيرة من الاسلحة التشيكية وغيرها . فقد استطاعت شبكات الهاغانا المنتشرة في اوربا واميركا والمستندة الى توطؤات واسعة ، ان تنظم شراء وارسال الاسلحة واقتناص المتطوعين والمرتزقة وترحيلهم بدقة لانجارى وبيراعة فائقة وبمساعدة السلطات الرسمية سراً كما حدث في فرنسا ويوغوسلافيا مثلاً رغم معارضة الولايات المتحدة وبريطانيا . واغرق فدائي من الهاغانا سفينة تنقل اسلحة تشيكية للجيش السوري في الادرياتيك قرب الشاطىء الايطالي بعيد ابتعادها عن هذا الشاطىء . واذا كان المصريون قد استطاعوا شراء اسلحة من ايطاليا واستفادوا بلا ريب من توطؤات بريطانية فانه يبدو ان الهدنتين اللتين فرضتها هيئة

---

(١) لتكوفسكي المرجع السابق ص ٣٩٧ ؛ ج و د. كمش Both sides ص ٢٢٣ . لقد تغلب المصريون على هذه الصعوبة بنهب المخازن البريطانية في منطقة السويس . وكان متطوعو جيش التحرير سيئي التسليح بشكل صارخ جداً (ج و د. كمش ص ٨١ ومابعدها) .

الألمان اخوانهم في التبعية الاوربية ورغبتهم في التبرؤ دون كثير من الاذى وعلى حساب فرقاء آخرين غير اوربيين فقط . ولم تؤخذ تطلعات ومصالح السكان الاصليين العرب خلال كل هذه التطورات بعين الاعتبار من قبل القادة الصهاينة الا بشكل ثانوي جداً . لقد تغلبت وجهة النظر الدولية على وجهة النظر الداخلية (الداخلية بالنسبة لفلسطين) كما قال مارتن بوبر . حتى ان الاتفاق السريع الزوال الذي تم بين فيصل ووايزمن قد عين موقفه بالاستناد الى سياسة الدول الكبرى . وكان فيصل ، وقد لازمته الرغبة في مملكة هاشمية كبيرة مهما كان الثمن ، مستعداً للمساومة على التنازل الكامل نوعاً ما عن فلسطين للصهيونيين مقابل الدعم اليهودي الدبلوماسي والمالي والتقني للدولة العربية الكبرى العتيدة التي سيحكمها، مضحياً بالجزء في سبيل الكل، سالكاً الى ذلك درب سياسة سلالته التقليدية . ولكن « اعتداله » هذا لم يثمر لأنه كان بحاجة ، خلافاً للحكام السابقين ، الى ان تدعم الجماهير العربية في الشرق الادنى مطالبه . ولم ينفع شيء في جذب الوطنيين السوريين بله عرب فلسطين الى وجهة نظره القائمة على التنازل عن فلسطين . وقد اكره كزعيم على اتباع رعاياه . وقد شهدت « حسن نوايا » اخيه عبد الله النسبية التي قامت على اسس مشابهة بعد ربع قرن العوامل نفسها تبطل الى حد كبير مفعولها .

ان تقدم الحركة الصهيونية ونجاحها يمكن وضعهما اذن في اطار التوسع الاوربي نحو البلدان التي سميت اخيراً العالم الثالث . وكان من المتعذر ان تجري الامور على غير ذلك بالنظر لاهداف الحركة الاساسية . مما ان وضعت المقدمات حتى اظهر منطق التاريخ الثائر الحواتيم . ان ارادة احداث دولة يهودية صرفة اودولة ذات هيمنة يهودية في فلسطين العربية في القرن العشرين لايمكن ان تؤدي الا الى موقف من طراز استعماري مع تنمية الاتجاه الفكري العنصري (وهذا طبيعي تماماً من وجهة النظر السوسيولوجية) [1]، والى صدام عسكري بين العنصرين في النهاية . وعلى ضوء هذا نستطيع ان نفهم رفض القادة الصهيونيين مرات متكررة التسويات السلمية مع العرب خشية الا تكفل لهم هذه التسويات السيطرة المؤكدة على فلسطين العتيدة [2] كما نستطيع ان نفهم تماماً جواب غولدا

(١) لايمكن أن يدهش من ان يرى الشروط التي تثير الاتجاه الفكري العنصري في كل مكان (التمييز العنصري المتفق مع التمييز الاجتماعي) تفعل فعلها أيضاً عند اليهود لايمكن أن يدهش من ذلك إلا من كان لديه تصور عرقي أو صوفي لليهودية (وهذا التصور الاخير رائج بين أوربيي اليسار) .

(٢) كتب تاريخ هذه المحاولات بالعبرية المناضل المستشرق هارون كوهين من الملبام . راجع كتابه الضخم (اسرائيل والعالم العربي Yisraël ve-ha-ôlam aravi) مارهافيا وسيفريات بوعالم ha-shômar ha-tsa'ir) ١٩٦٤ ص ٦٤٧ . وكتب عن احدى هذه المحاولات التي =

مايرسون (التي اصبحت غولدا ماير) التي استمرت وقتاً طويلاً وزيرة خارجية اسرائيل وبقيت وهي في ذروة الشرف محافظة على نظرة المناضلة الصهيونية الاميركية العنيدة والمحدودة التي كانتها في السابعة عشرة . لقد سألها عضو اميركي من اللجنة الاخيرة الانكليزية الاميركية التي قامت بتحقيق في فلسطين عام ١٩٤٦ :

« هل يعتبر اليهود انفسهم راضين اذا توفرت لهم كاقلية الامتيازات نفسها التي تعدون بها العرب كاقلية ؟ » فاجابت غولدا مايرسون : « لاياسيدي ، لانه يجب ان يكون في العالم مكان لايكون اليهود فيه اقلية [1] » .

لايمكن نكران تماسك هذا الطراز من التفكير المركز على حل معين والمستهين بحقوق الاخرين . ولا سبيل الى ان نستنتج

جرت في ١٩٣٦ عندما كان العرب مستعدين لقبول عدد كبير من المستوطنين اليهود سنوياً وفق معايير تلك الفترة في الوقائع التي نشرتها (Ner) الجزء ١٢ العدد رقم ٧٠٠٩ تموز – آب ١٩٦١ ص ٢٤ ومابعدها . راجع كتاب فلان حفشة « نحو الاتحاد في فلسطين Towards union in palestine » ص ٣٩ للوقوف على العرض العربي الذي قدم ايضاً عام ١٩٤٣ بخصوص دولة ثنائية القومية مع قسب محدودة في السكان ورفضته الوكالة اليهودية .

(١) كتاب غولدا ماير المدعى سيركين الترجمة الفرنسية باريس . غاليار ١٩٦٥ ص ١٣٣ .

من ذلك ان الاخرين ملزمون معنوياً بالانحناء ولا سبيل الى الدهشة اذا اثار هذا الحل عندهم ردود فعل عنيفة .

قد يحكم على هذا الهدف بانه حميد وعلى الاذى اللاحق بالعرب بان لاوجود له اوانه تافه عوض عنه بميزات هامة وعلى الوسائل نفسها بانها مبررة اومستحسنة فذلك يتوقف على سلم القيم التي يتبناها الانسان . غير انه لايمكن ان تنكر بشرف الاطار الذي انتظم فيه هذا المشروع . ومن الممكن ايضاً بأن نحكم على التوسع الاوربي حكماً مغايراً . ويجوز للمؤرخ الا يطلق عليه حكماً البتة وان يكتفي بالتقرير .

اما اذا حاكموه وادانوه وغضبوا عليه واذا وجدوا مقاومة الشعوب المستعمرة . فان ادنى درجات الدقة في المحاكمة ينبغي ان يحول دون الاخذ باساويين مختلفين في الحكم والتقدير . انني اصر على الاعتقاد بان كون الانسان يهودياً لايجيزه على استخدام وزنين ومقياسين (متعرضا بسبب ذلك الى ان تصنفني السيدة اليان امادو ليفي – فالانسي بين المصابين بالانفصام) والا توجب ان نكون صريحين ونعلن ان هنالك نفراً معيناً من الناس على حق في كل الاحوال وهو النفر الذي ننتسب اليه وهو هنا حسب المعايير المناهضة للسامية وحسب الصهيونية جماعة اليهود . ومثل هذه القناعة بعصمة رهط الانسان العنصري ظاهرة متواترة في تاريخ الجماعات الانسانية وهي تدعى العنصرية .

اعتراضات وتقييدات

بعد ان تم وضع القضية تحت المشاهدة بشكل عام بقي علينا ان نستعرض الاعتراضات التي تثيرها . وهذه الاعتراضات تستند كلها بالطبع الى حوادث واقعية ويقود بعضها الى نتائج تحدد التعريف العام لمجرى التطور اوتصفه على الاقل .

ولن اتكلم الا للتذكير عن الحقوق التاريخية المزعومة لليهود جميعاً على ارض فلسطين لئلا اصم قرائي اذا اعتقدت انهم قد اخذوا بهذه الحجة . فآخر دولة يهودية مستقلة حقاً في فلسطين قضت عام ٦٣ قبل المسيح عندما استولى بومبي على اورشليم ، واخر انتفاضات الامة اليهودية في فلسطين ترجع الى تاريخ ثورة بار كوخبا عام ١٣٥ وقد تقلص سكان فلسطين الرومانية اليهود اثر المنافي والرد الى العبودية التي تلت الثورتين الكبيرتين وتقلصوا بشكل خاص بسبب الهجرة (الهائلة التي جرت قبل تهديم الاستقلال بقرون عديدة) واعتناق الوثنية ثم المسيحية ثم الاسلام . ومن المحتمل جداً (والانتربولوجيا الطبيعية مقبلة على ايضاح ذلك) ان يكون في

سكان فلسطين المعتبرين عرباً (وهم بغالبيتهم مستعربون) من دم العبرانيين القدماء اكثر بكثير من معظم يهود التشتت الذين لم يكن انغلاقهم الديني يحول ابداً دون امتصاص مهتدين من اصول متعددة . وكانت اعمال التبشير اليهودية هامة في اوربا الغربية نفسها خلال اجيال وقد استمرت في المواطن الاخرى حقبا طويلة . ويكفي للاقتناع بذلك تاريخياً ان نذكر الدولة اليهودية في جنوب الجزيرة العربية في القرن السادس وكان قوامها عرب الجنوب المتهودين ، ودولة الخزر اليهودية التركية في روسيا الجنوبية الشرقية في الجيلين الثامن والتاسع واساسها تركي او فنلندي — او غربي وفيها بلا ريب قسم سلافي ، ويهود الصين «المتصينين» تماماً واليهود السود في كوشان والفالاشا في الحبشة الخ . ويكفي من وجهة النظر الانتربولوجية ان نجول بناظريك في اجتماع لليهود المختلفي الاصول حتى تقدر أهمية الاسهامات الاجنبية .

ولاسبيل من وجهة النظر المعقولة ، حتى لو اعتبرنا هذا الرهط المتنافر الذي يتشكل من يهود العالم الباقين الى عهد قريب على صلة باليهودية الدينية شخصية جماعية مستمرة رغم تجددها العميق الداخلي واعتبرناها على هذا الأساس الوارثة للأمة العبرانية القديمة ، لاسبيل الى ان نخصهم بحقوق على ارض سكانها ، بحسب وجهة النظر نفسها عن الشخصية الثابتة المحددة بوحدة الواقع ، قد تجددوا تجدداً كاملا،

حتى لو بقيت عناصرهم هي نفسها في معظمها . وقد لفت فيصل الانتباه كما لفته كثيرون قبله وبعده انه يمكن للعرب ايضاً وفق هذه النظرية ان يطالبوا باسبانيا . والحجة التي يسوقها الصهاينة بالحاحهم على تطلع اليهودية الدائم الى العودة الى صهيون هي حجة ضعيفة . فهي تجعل من مشاغل الفرد الصميمية قانونا بالنسبة للآخرين. وليس في هذه الحجج التاريخية كلها مهما كان أثرها عظيما في بعض العقول المتدينة المشربة بالايديولوجية القومية[1] مايمكن ان يقلب ترسخ عنصر غريب على حساب السكان الاصليين ، بالمعنى المألوف لهذين التعبيرين ، الى عودة بريئة الى مسقط الرأس .

وأثر الاشتراكية في قسم كبير من البشوف أو على الأقل في أقدم موجاتها تلك الموجات التي كان لها اكبر الأثر في قيام الايديولوجية الجماعية ، هو بالمقابل ، أمر لاينكر . الا انه لاسبيل منطقياً وسوسيولوجياً الى التذرع بهذا الميل الاشتراكي لانكار طبيعة البشوف الاستعمارية . ومن يفعل ذلك فانما يتبع عن وعي او لاوعي خط التفكير التقليدي في الاشتراكية الاوربية الذي يعتبر انه لايمكن ان تقوم بين المجتمع الاشتراكي الا علاقات

(١) بما في ذلك بعض العرب قبل ان يقضي انتشار الايديولوجية القومية والحجج النظرية المناهضة للصهيونية بين الجماهير على هذا النوع من المواقف . راجع كتاب ن. منديل . Turks, Arabs and Jewish immigration » الاتراك والعرب والاستيطان اليهودي ص ٨٩ .

مستوحاة من أعمق انواع الغيرية . ونحن هنا امام خط ايديولوجي باسوأ معاني هذه الكلمة . وقد يرده الى حد ما المذهب الميتافيزيكي للضياع كما وضعه ماركس الشاب وهو يرد الى علاقات الملكية وحدها الانحرافات الخطيرة التي تصيب الشخصية الانسانية ويفترض بدون مستند ، ان جماعية وسائل الانتاج تكفي لضمان العودة الى شخصية قائمة على الغيرية . وقد قامت الستالينية بتنظير هذا الخط الى حد مابعد ان انتشر بشكل غامض . وانتهت العقول الواضحة في الحركة الاشتراكية بعض الاحيان الى عقمه وعبرت عن تشككها حياله في مناسبات نادرة . وهذا مافعله انجلس ولينين[1] . وكان من المفروض في الاحداث القريبة او الاحداث الأبعد منها ، التي اقتضى التذكير فيها او الكشف عنها للمتأثرين بستالين قيام حركة ازالة الستالينية ، ان تبدد كل الريب من هذه الناحية . انه يمكن لمجتمع من اكثر المجتمعات ديمقراطية او اشتراكية في الداخل ان يقيم علاقات خارجية تنكر على المجتمعات الأخرى حقوقها الخاصة . واذا اعملنا الفكر وجدنا ان هذه ظاهرة كثيراً ماأتى التاريخ بمصداق لها حتى تاريخ اكثر الناس اتزاناً من الناحية السوسيولوجية مهما كان في ذلك من التثبيط لهمم اولئك الذين يعلقون على البشرية آمالا عريضة . كان نظريو الاشتراكية القومية

(١) راجع النصوص التي جمعها في مجلة « Voies Nouvelles » العدد حزيران ١٩٥٩ .

اليهودية قليلي الاهتمام بالمجتمعات التي يتهددها مشروعهم بالاذى او التي قد يهدمها .فهم كانوا يظنون بسذاجة، حسب خط التفكير الذي حددناه سابقاً ، ان الجماعة اليهودية المتجددة لايمكن ان تكون بطبيعتها سوى طالع يمن بالنسبة لهذه المجتمعات وانه بالنتيجة لافائدة من الاهتمام اهتماماً فعليا بالعلاقات التي ستقام معها . والشبه بدهي بين هذا الموقف الفكري وموقف المستعمرين الفرنسيين المشبعين بايديولوجية الثورة الفرنسية الديمقراطية . ان اخضاع الجزائريين والتونكينيين لم يكن الا في سبيل مصلحتهم . انهم يعدونهم بهذه الطريقة رويداً رويداً ليتفهموا فيما بعد ، في موعد بعيد جداً، شرعة اعلان حقوق الانسان وربما أمكن تطبيقها عليهم في موعد أبعد .

صحيح ان الايديولوجية الاشتراكية باحلالها القيم الانسانية المحل الأول قد هيأت عدداً ممن كانوا مشبعين بها للاهتمام بمصير الناس المتصلين بهم . ولذا اهتمت ارسخ عناصر اليشوف في الاشتراكية بالعرب . ولكن النزاع الذي كان في اعماق نفوسهم والذي يقوم على تعارض مثلهم الأعلى الانساني مع مشروع النهضة اليهودية على ارض فلسطين كان ينتهي في اكثر الحالات الى نتائج وهمية بتأثير آلية تدخل في اختصاص التحليل النفسي . وكانوا يعزون انفسهم بيسر بواسطة النظرية المحببة القائلة بأن الجماهير العربية الخاضعة للاقطاع والمستغلة من قبل مواطنيها انفسهم لايمكن الا ان تفيد من الفتح اليهودي ، على الأقل في المدى البعيد . وهكذا كانوا يصنعون لهذه الجماهير سعادتها او يهيئونها لها

بالرغم عنها . ولم ينتبهوا الى انهم بذلك يكررون الحجج الاستعمارية التقليدية التي كان موقفهم حيالها واضحاً تماماً عندما كان الأمر يعني غيرهم . وانه لجميل جداً ان يدفع الوعي الاشتراكي اقلية هامة من اليشوف بعض الأحيان الى الى يعلنوا بصدق في زمن الانتداب انهم مع الدولة الثنائية القومية المتوازنة . ولكن ترسخ اليشوف في فلسطين كان ، طبعاً ، بالنسبة لمن اشتركوا بهذا الاعلان امراً لاينازع فيه ؛ وقوة الايديوجية الستالينية وحدها هي التي استطاعت أن تؤدي ببعض الافراد القلائل الى مواقف واعمال متطرفة في ميدان هذا النزاع . غير أن ظروف الكفاح المسلح في فترة ١٩٤٠ — ١٩٤٨ قد عبأت تقريباً كل العقول لانقاذ اليشوف واستقلالها وكنست كل الوساوس وانتهى المتطرفون القوميون ، كما هو مألوف في مثل هذه المنازعات ، الى جر الجماعة كلها تقريباً .

يستخدم موضوع اشتراكية اسرائيل ، بشكل خاص في الاوضاع التي قامت منذ عام ١٩٤٨ ، ليشيع بين الاسرائيليين في اغلبيتهم وبين اصدقائهم اليساريين شعور الارتياح نفسه الذي يتولد مثلاً عن الديمقراطية السياسية الداخلية في فرنسا لدى العاملين الفرنسيين في المستعمرات . فيصبح كل نزاع يشتركون به ، بيسر

كبير ، نضال الخير ضد الشر [1] . ومما يسلي ان نرى اثبت الصهيونيين قدماً في البرجوازية يلوحون بعلم الماركسية او الاشتراكية ضد كل معارضة لاسرائيل . وهكذا نرى الصحيفة الرسمية للحركة الصهيونية الفرنسية « La Terre retrouvée » الضعيفة الميل الى اليسار عادة ، تبالغ في مدح عبد الرزاق عبد القادر كشيوعي عربي حقيقي يخالف العقول السيئة التي تدعي الشيوعية او الاشتراكية وهي تنتقد الدولة العبرية . وليس في نيتي ان أحلل النسب المتتالية لقطاعات الدولة التعاونية والفردية في الاقتصاد الاسرائيلي . انني اوافق عن طيبة خاطر على ان المستعمرات الجماعية الاسرائيلية قد اعطت في الغالب المثال بل ربما اذكى مثال معروف على الفضائل التي قد ينميها اسلوب الحياة الجماعية الذي تلهمه ايديولوجية انسانية النزعة حتى لو اندمجت في تركيب قومي . انني اترك جانباً قصة الوزن النسبي لهذا

(١) قرأت في صحيفة صهيونية متطرفة في يساريتها : « هذا الموقف حيال اسرائيل الوطن التاريخي للشعب اليهودي الذي اصبح نوعاً من موازين الزلازل بالنسبة لكثير من النظم وبالنسبة للحكومات جميعاً ... انهم ليسوا تقدميين ولكنهم ضد اسرائيل ... وليس هذا العداء لاسرائيل بقعة في هذه الشمس او تلك : انها داء مطلق لا يليق إلا بعقلية رجعية » (Cahiers Bernard Lazare العدد رقم ٢١ — ٢٢ تشرين الثاني كانون الاول ١٩٦٣ ص ٢٥) . انه تطلع اخرق الى تكريس الدولة باسم يهودية اغلبية سكانها ! واذا لم تكن هذه هي العنصرية فما هي العنصرية اذن ؟

القطاع الاقتصادي ولهذه الايديولوجية ولاثرهما في اسرائيل ؟ فليست هذه القضية مما يتفق وموضوع هذه الدراسة . ان ايديولوجية من هذا الطراز قد تنمي عند صفوة ممن يعتنقونها استعداداً لتفهم قضايا الآخرين بشكل احسن . ولكن التجربة التاريخية تكشف لنا ويا للأسف ان مكايد الشيطان لاتحصى اعني النزوع البشري الى ترجيح مطامح ومصالح فريق على مطامح ومصالح الفريق المجاور وتبرير هذا الاختيار بحجج خارقة في المثالية بالتالي . وهذا درس من اكبر دروس ماركس التي كان يتصام عنها بعض الاحيان . وقد تحدث لينين عام ١٩١٦ ، وهو اكثر منه واقعية ، عن هذا الميل الى « الاستواء على ظهور الآخرين » مما يتوقع حدوثه حتى بعد الثورة الاجتماعية [1] . وهذا يقود الى القبول الى حد ما بمفهوم الطبيعة البشرية [2] الذي عارض بموجبه باكونين ماركس والذي يقع الى

(١) رسالة المجلس الى كوتسكي ١٢ ايلول ١٨٨٢ اوردها لينين وبسطها في «ميزان النقاش حول حق الشعوب في ان تكون سيدة نفسها» بالفرنسية في كتاب لينين « ملاحظات انتقادية عن المسألة الوطنية ؛ حق الشعوب في أن تكون سيدة نفسها » موسكو طبعة اللغات الاجنبية ص ١٧١ وبعد وفي لينين « الأعمال الكاملة الطبعة الرابعة الجزء ٢٢ » (باريس Ed. sociales وموسكو طبعة اللغات الأجنبية ١٩٦٠) ص ٣٧٩ ومابعدها .

(٢) انني أرى المهاجمة التي يتعرض لها قبول كهذا مغاير لمختلف الفلسفات والايديولوجيات الماركسية الجديدة المبنية منذ مائة سنة من مواد =

حد كبير تحت طائلة النقد وقد كان الاخذ به مشئوم العواقب كثيراً . ومع ذلك فلا يمكن قبوله اورفضه بتمامه .

وعلى ذلك فانه لايمكن ابداً ، حتى لوسلمنا بان دولة اسرائيل اشتراكية تماماً ومن كل النواحي ، ان نستخلص ان سياستهـــا الخارجية غير قابلة للذم ولا ان موقف غالبية سكانها من الشعوب الاخرى مستلهم من أصفى المنابع الانمية .

=متباينة أخذت من آراء وفرضيات ومشاعر الخ لماركس وانجلس ونظمت في اطر اخرى . انني اوضح اذن . يبدو لي انه لاتكران في ان وضع الانسان البيولوجي الذي لم يتبدل ابداً من العصر الحجري من جهة ، واهم خصائص كل مجتمع ممكن من جهة اخرى ، وبعض الصفات الشائعة جداً التي وان لم تكن أزلية قد تخطت مع ذلك مختلف التشكيلات الاجتماعية الخاصة التي قامت منـــذ بدء التاريخ البشري (او التي قامت منذ ثورة الوهلة الاخيرة من العصر الحجري على الاقل) واستمرت ، من جهة ثالثة ، قـــد كانت كلها عاملاً في خلق مجموعة من السمات السيكولوجية الكثيرة الشيوع والطويلة البقاء التي يتصف بها الانسان التاريخي ، انه سيتبدل بلا ريب حتى في هذه النقاط ؛ ولكن تجربة نصف قرن من المجتمع السوفياتي الذي ليس فيه ملكية خاصة لوسائل الانتاج قد دلت على ان الانسان يصمد لهذا الالغاء . وهذا مخالف لايديولوجية ماركس نفسه ولكنه متفق مع سوسيولوجيته او بالحري مع السوسيولوجيا القائمـــة على المبادىء التي أستخلصها ، وعلى كل فان ماركس نفسه قد تحدث عرضاً عن الطبيعة البشرية . ذكر س. ف. بلوم كمراجع لهذا الموضوع : The world of Nations نيويورك . كولومبيا يونيفرستي برس ١٩٤١ ص ٢ و « Journal of the history of ideas » ٧ عام ١٩٤٦ ص ٩ ١

قد نفهم اجتماعيا وانسانيا غضب الاشتراكيين الاسرائيليين عندما ننعي على هرزل او على هذا اوذاك من متقدميه وخلفائه مواقفهم الامبريالية او الاستعمارية او الرأسمالية . صحيح ان الجماهير التي كونت القوة الحية للحركة الصهيونية والـــتي بدونها لم يكن بمقدور المنظمات ان توفر لنفسها قاعدة واقعية ، صحيح ان هذه الجماهير كانت مشبعة بالمثل الاشتراكية بعمق ، تلك المثل التي تتعارض تعارضاً شديداً مع المفاهيم الهرزلية . غير ان هذه المثل الاشتراكية لم تهيىء سوى نخبة قليلة جداً عددياً وضعيفة كثيراً سياسياً تحشى دون موازبة واعية او لاواعية ردفعل الشعب الذي كانت تؤذبه الحركة بمجموعهـــا من جهة وان الحركة من جهة اخرى كانت على الاخص تشكل كلاً واحداً . وقد توصل القادة الصهيونيون الى اهدافهم عن طريق الضغط الذي كانت تمارسه قاعدتهم الاشتراكية من ناحية وبواسطة مغامرات سياستهم الدولية من ناحية اخرى . ولو واجه ضغط الجماعات الصهيونية في اوربا الشرقية امبراطورية عثمانية لاتزال على قدر كاف من القوة اودولة عربية كبرى اودولة سورية كبرى اودولة فلسطينية مستقلة وحرة في حركاتها لبطل اثره وادى على الاكثر الى استيطان جماعات يهودية تشكل اقلية في فلسطين مجبرة على ان تجد تسوية تقبل بها الاكثرية العربية . ولحولت هذه الاوضاع القسم الاعظم من اليهود الذين كانوا

قبل كل شيء يرغبون في الهجرة عن الاتجاه نحو فلسطين حصراً ، وتبدل اتجاه الضغط مع بقائه على قوته وانتهى بلا ريب الى حمل البلدان الاخرى على البحث عن حلول لمشكلة اليهود المضطهدين في الدول المناهضة للسامية في قبول الاستيطان الجماعي وربما ايضاً في اعطاء من يطالب منهم بمجتمع مستقل يجمع مابينهم ارضا حرة كما حاول الاتحادالسوفياتي ان يفعل في بيروبيدجان (١) .وينبغي الا ننسى ان غالبية اليهود اليوم كما في السابق ومثلما جرى في العهد

(١) قدم الاتحاد السوفياتي لليهود في البدء ثلاثة حلول مرضية : الاندماج ، الاستقلال الذاتي الثقافي للرعية اليهودية الناطقة باليديش في الاماكن التي تقطنها ، مناطق يهودية محكومة حكما ذاتيا . أما كيف آلت سياسة القوميات في العهد الستاليني الى عرقلة الاندماج عملياً وتجميد التبعية اليهودية وكيف ادت الحرب الى استسلام السلطات للنزعة المعادية للسامية التي استمرت بين الجماهير ثم انكشفت علنية وبقوتها الكاملةوكيف ان استمرار الشعور بالتبعية اليهودية الذي ولدته هذه السياسة والذي اعلن بمناسبة وصول اول سفيرة اسرائيلية كيف ان كل ذلك اطلق العنان لتدابير ستالين المناهضة للسامية صراحة ،فهذه قصة طويلة لايمكن سردها هنا. وهي قصة لاعلاقة لها « بجوهر الماركسية المناهض للسامية » كما يخيل الى ر . مزراحي . غير ان فشل مشروع بيروبيدجان الذي يتذرع به الصهيونيون لايحمل اي معنى بعيد ، انه يدل على ان الحلول الاخرى التي قدمت لليهود السوفياتيين لم يكن فيها كثير من المخاذير في نظرهم في العهد الاول وان مشروع بيروبيدجان قد وصف دون ان يزود بخصائص جذابة. وكان الزمن كفيلا بتفاقم الامر .

الروماني وحتى قبل ذلك في زمن الفرس قد انتقوا التشتت بملء حريتهم . وقد تجمع منذ زمن بعيد في نيويورك وحدها من اليهود اكثر ممن في دولة اسرائيل وقد انتقى معظم اليهود الجزائريين ،عند ترك وطنهم ، فرنسا لا اسرائيل . ومهما يكن من امر فان الاشتراكيين الاسرائيليين كانوا تابعين شاءوا ام ابوا لسياسة المنظمة الصهيونية بل كانوا الى حد بعيد متضامنين معها .

لقد رأينا ماهي الفكرة التي يجب ان نحملها عن ثورةاليشوف ضد الامبريالية البريطانية من الناحية التاريخية . انها ثورة جماعة من العامرين ضد الوطن الام الذي تتباين اهدافه مع اهدافهم . ومما سهل هذه الثورة ان العامرين لم يكونوا ينتسبون الى شعب الوطن الام نفسه . أما ان هذه الثورة قد اسهمت في اضعاف الامبراطورية البريطانية فهذا مؤكد واما استخلاص النتائج كلها التي يستخلصها منها عبد الرزاق عبد القادر و ر . مزراحي وجون ودافيدكمش وآخرون فهذا اسلوب في المحاكمة وهمي . ليست هذه الثورة هي التي اعطت لحركة العرب في سبيل الاستقلال اندفاعتها فهذه الحركة التي ظهرت منذ سنوات ١٩٠٠ ساندت مساعي الحكام وكبار البرجوازيين العرب في سبيل الحصول على الحكم الذاتي في نهاية الحرب العالمية الاولى . وقد عبرت عن نفسها بالثورة المصرية الكبرى في ١٩١٨– ١٩١٩ ، وبحركة الشعب العراقي العظيمة

في ١٩٢٠ ،وبالانتفاضات المعاديةللصهيونيـة في فلسطين منذ عام ١٩٢٠ والتي غالباً ماتجددت فيما بعد ، وبالحركات العديدة السورية اللبنانية ضد الانتداب الفرنسي،وكانمايسمّونه عادة بثورة الدروز ١٩٢٥ – ١٩٢٦ اعنف اشكالها . وتحت ضغط هذه الحركة الجماهيرية استطاع الحكام والاحزاب القومية التي كانوا ينظمونها ان يحصلوا من بريطانيـا العظمى وفرنسا على عدد من التنـازلات الخداعة الى حد ما التي كان يقصد بها اعطاء ترضيات ظاهرية (١) . ويبرز بين هذه الترضيات الكتاب الابيض البريطاني عام ١٩٣٩ وهو الذي اثار البيشوف ضد انكلترا . وهذه الحركة هي التي ادت الى استقلال لبنان وسوريا استقلالاً حقيقياً في ١٩٤٣ و ١٩٤٥ . لقد جرت كل هذه الامور قبل عام ١٩٤٨ واستقـلال اسرائيل وكان لامناص من ان تستمر وتنتهي فيما بعد الى نتائج اعظم بكثير . صحيح ان كفاح الارهابيين اليهود ضد انكلـترا قد كشف لاعدائهم ضعف (البيون Albion (٢)) المتغطرسة النسبي وشجعهم ولكنهم لم ينتظروه ليبدءوا مقاومتها وحتى للوصول الى

(١) مناورات احسن وصفها ميشيل بونيد في «Divide and Lose the Arab Revolt 1955 - 1958» - لندن جوفروا بليس ١٩٦٠ - انها تصف فترة لاحقة ولكنها تنطبق ايضا على فترة ١٩٢٠ – ١٩٤٨

(٢) البيون اسم اطلقه القدماء على بريطانيا العظمى .

النتائج الاولى المبشرة . وليس في ذلك كله مايخفف من الطبيعـة الاستعمارية لاسكان اليهود في فلسطين .

هنالك مجموعة من الحجج ترمي الى البرهان عن مدى البعدبين مثل البيشوف واسرائيل وبين المواقف الاستعمارية المعتبرة نموذجية او الرواسم الشعبية (حالياً) للاستعمار :

لقد اعترض علي الطلبة اليهود في فرنسا قائلين « ماذا عن الوطن الأم بالنسبة لليهود المطرودين من بلد الى بلد في اوربا » . وقدرأينا ما يجب ان نفكر به حول هذا الموضوع « لقد قامت بدور الوطن الأم التاريخي لليشوف أوربا بشكل جماعي » اوربا التي ألقت على فلسطين بعبء العناصر التي اعتبرتهـــا غير مرغوب فيها كما ارسلت المحكومين بالاشغال الشاقة لاستعمار اوستراليا او غويانا . وكانت بريطانيا العظمى هي العنصر المحرك باعتبارها استولت بقوة السلاح على الأرض المطلوب احتلالها واقامت فيها حكومةوفرضت ،حسب قاموسها الخاص ، الشرع والنظام . وقد تعرضت بالمقابل ،الى غضب عامريها عندما ارادت الحد من تقدمهم في سبيل الهيمنة على الارض المذكورة .

يؤكدون ان شراء الأراضي من المالكين المحليين قد تم بدون اغتصاب وبأكثر الأساليب قانونية وباسعار جد موافقة للبائـع في اغلب الأحيان . ولم تكن الأراضي المعنية ، في الغالب ، من أحسن الأراضي بل من أردئها . وكان الشراء مفيـــداً للبائع كما كان لصالح التنمية الزراعية في البلاد عموماً . ان في هذه الاقوال

شيئاً من الحقيقة . فلا ينكر أحـد بالواقع قانونية عمليات شراء الأراضي على الأقل قبل حرب عام ١٩٤٨ . فلم يكن بمقدور الحكومة العثمانية ولا السلطة المنتدبة البريطانية ان تسمح بغير هذا المسرى لأسباب سياسية ماثلة . ولكن مصادرة الاراضي بوحشية ليست ابداً خاصة اساسية من خواص الاستعمار . والواقـع ان نصيب القوة المباشرة في اكتساب اراضي الاستعمار في العالم كله كان أقل بكثير من نصيب الصفقات القانونية ظاهرياً لأن وضع المستعمر يتيح له اللجوء الى مخادعات وموارىات شرعية لتحقيق مصلحته (١) . وكان، في اكثر الأحيان ، مجرد الوجود الاوربي بتفوقه الاقتصادي والتقني وبتطبيق قوانين من اعدل ما يكون بشكل مجرد ولكنها مصنوعة وفق الاوضاع الاوربية وغير متلائمة مع الوضع الاستعماري، يكفي ضمان حد ادنى من الصفقات العقارية التي تسمح بتكوين قاعدة من لاراضي للاستعمار بشروط جد مناسبة او ممتازة ؛ الا ان كل شيء كان يتم بشراء وبيع نظاميين ، وكان مصادرات الاراضي في افريقيا بريطانية مثلا استثنائية تماما . لم تأت بريطانيا العظمى بعامرين نكليز ليقيموا في اراضي الفلاحين الهنود ، ومن الممكن ذكر امثلة

(١) يراجع مثلا العرض الشيق الذي كتبه بول صباغ في كتاب :
« La Tunisie essai de monographie »
بالفرنسية . باريس . Ed . Sociales ١٩٥١ ص ٣٦ ومابعدها

اخرى كثيرة . ومع ذلك فلا يتردد احد في ان يتحدث في هذه الحالات كلهـا عن الاستعمار . وليست سلامة صفقات الاراضي الصهيونية من الناحية القانونية حجة لنفي طبيعة اليشوف الاستعمارية . وقد جرت منذ عام ١٩٤٨ مصادرات على نطاق واسع (١) وارتفعت مساحة الأراضي التي يزرعها اليهود من ٩٢٨ كم٢ في فلسطين الانتداب

(١) راجع بخصوص هذه المصادرات بحث ف . شوارتز الامين الحسن التوثيق : « The Arabs in Israël » ص٩٦ ومابعد . وفي كتاب دون بيرتز : « Israël and the Palestine Arabs » تفصيلات . اوسع طبع بالانكليزية في وشنطن . معهد الشرق الاوسط ١٩٥٨ . يمكن الحصول على التشريعات المذكورة مترجمة للانكليزية ترجمة مقبولة في « Fundamental Laws of the state of Israël » الناشر جوزيف بادي - نيويورك - توين بوبليشرز ١٩٦١ . وتتضمن مجلة Ner التي يصدرها في اسرائيل فريق احمد الصغير الجريء كثيراً من الوثائق والاحتجاجات عن هذا الموضوع ولنذكر بعد شوارتز كتاب احتجاج لجنته المركزية (ومنها مارتن بوبر وإي . سيمون و س . شيريشفسكي ورئيس لجنة الكنيست للقوانين) ضد « قانون الاستيلاء على الاراضي ومعناه الحقيقي سرقة اراضي اناس من سكان الدول . انهـم مزارعون مثلكم . انهم مواطنون في اسرائيل مثلكم . وليس بينكم وبينهم الا فارق واحد : انهم عرب وانتم يهود . » (Ner) . نيسان ١٩٥٣ وشوارتز ص ١٠٢ . وعن الرجوع الى مقال س . شيريشفسكي « Against the Agricultural Lands Cosolidation Law » في مجلة (Ner) المجلد ١٢ العدد ٥ - ٦ اذار - نيسان ١٩٦١ ص ١ - ٥ . وقد ذكر الكاتب بقانون الاستيلاء على الاراضي الصادر في ١٠ آذار ١٩٥٣ المذكور سابقا بمناسبة صدور القانون الجديد الذي « يعتبره =

في فترة ١٩٤١ – ١٩٤٢ الى ٣٢٤٠ كم في ١٩٦١– ١٩٦٢ في دولة اسرائيـــل [١] وهي اصغر (٢٠٧٠٠ كم٢ بدلاً من ٢٧٠٠٠ كم٢) وفقد العرب في اسرائيل منذ الحرب ٤٠ أو ٥٠٪ من اراضيهم [٢]

صحيح ان الفلاحين العرب لم يكونوا مستغلين مباشـرة من قبل مالكي الأراضي اليهود بشكل عام كما كان مثلا الفلاحون الجزائريون العاملون في خدمة العامرين الفرنسيين . فعدد الأجراء الزراعيين

العرب ، عن حق (تشريعيا عنصريا يرمي الى تهويد الجليل باقصاء السكان العرب » وقد « ارتكبت ظلامات لاعد لها باسم مقتضيات التنمية الحيوية والاستقرار والامن ضد من استولي على اراضيهم ومن هـــذه الظلامات تحديد اسعار بخسة او تعويضات لم تدفع في كثير من الحالات حتى هـــذا اليوم او مواقف خبيثة ومهنية حيـــال المالكين العرب الذين صودرت اراضيهم واراضي اجدادهم لا لشيء الا « لأن الكيبوتزيين والموشافيين اليهود يريدون ان يزيـــدوا ممتلكاتهم كما تقول (الصحيفة الاشتراكية) ها آرتس » ويتضح من ذلك كيف ان اسلوب الحياة الجماعي لاينمع ابداً الرغبة في تملك املاك الآخرين (تملكا جماعياً بلا ريب !!)

(١) راجع « Statistical Hand book of Middle Eastern Countries » اورشليم . الوكالة اليهودية في فلسطين معهد البحوث الاقتصادية ١٩٤٤ ص ١٠ – وكتاب ج . كلاتزمن « Les enseignements de l'expérience israelienne» بالفرنسية باريس P.U.F. ١٩٦٣ (مجموعة العالم الثالث) ص ٢٥٨ .

(٢) تقدير متزن توصل اليه ف . شوارتز بعد مناقشة المعطيات المتوفرة ، ص ٩٩ من بحثه المذكور سابقاً .

العاملين في الأراضي اليهودية قليل [١] وعدد الأجراء الصناعيين في المعامل اليهودية اكبر . ومن المؤكد ان قضية التمييز العنصري غير واردة (في الريف) الذي كان السكان العرب يعملون فيه مباشرة في خدمة افراد العامرين اليهود تاركين لهم الانتاج الفائض من عملهم . ولكن استغلال السكان الأصليين المباشر ، وان تكرر حدوثه في عالم الاستعمار ، لايشكل خاصة حتمية من خواصه . فالعامرون الانكليز الذين اقاموا في الأرض التي اصبحت الولايات المتحدة لم يستخدموا الا استثناء السكان الأصليين الهنود للعمل في خـدمتهم . ولم يكن الانكليز في الهند مالكين يستغلون الفلاحين ، وكذلك كان الأمر في اوستراليا وفي زيلندا الجديدة مثلا . وفي عدد من الحالات لم يكن هنالك ، على كل ، سكان اصليون او كانوا وأبيدوا كما حدث في تسمانيا . فهل هنالك من يعتبر التوسع البريطاني في هذه البقاع كلها غير مطبوع بالطابع الاستعماري بالاستناد الى هذا الواقع .

لقد كان نصيب الاستغلال في العـــلاقات بين الاسرائيليين والعرب اقل من نصيب الهيمنة في الواقع . فلننظر الى الأشياء نظرة

---

(١) لنلاحظ على كل ان للقضية وجهين : فالوقافـــون العرب في الأراضي التي باعها كبار المالكين والذين طردوا من هذه الأراضي جريا على القاعدة المقدسة قاعدة العمل اليهودي الصرف قد عز عليهم العزاء عندما كانوا يفكرون بعلاقات المساواة الدقيقة الـــتي ستسود (احياناً) في هـــذه الأملاك .

اجمالية ولنكتف الى الحد الأدنى الذي لاينازع فيه . مهما كانت البواعث الخاصة لهرب العرب خارج البقعة الاسرائيلية مما خفض عـــددهم من ثلثي السكان الى العشر [1] فلا مراء في أن السبب العام هو ارادة السكان الجدد الذين تسربوا تدريجيا الى فلسطين منذ ستين سنة في ان يصبحوا العنصر المهيمن

(١) القضية كثيرة التعقيد . انظر مقالات الآنسة أ . م غواشون في مجلة « Esprit » الفرنسية في عددي تموز وآب — ايلول ١٩٦٤ . يبدو ان اهم بواعث هرب العرب كان ببساطة الذعر من الحرب كما جرى في اسبانيا عام١٩٣٩ او في فرنسا عام ١٩٤٠ . ولا جدال في ان الاورادور (Oradour) الاسرائيلي المذبحة التي قامت بها الارغون في ليل ٩ الى ١٠ نيسان ٩٤٨ واودت بحياة ٢٤٥ شخصا من رجال ونساء واطفال في قرية دير يس العربية قد كان لها اثر قوي في هذا الهرب . وزعيم الارغون مناحم بيجن وهو الوحيد الذي ينكر حقيقة المذبحة يفتخر مع ذلك باثر اكاذيب دير يس : « كانت القوات اليهودية تتقدم في حيفا كما تتقدم المدية في الزبدة . وفر العرب مـــذعورين وهم يصرخون : دير يس ! » (من كتاب La révolte d'Israël الترجمة الفرنسيـــة . بلون ٩٥٣ ص ١٢٤ وابـــد ذلك ج ود . كمش في ... Both Sides ص ١٢٤ واورده بار زوهار في كتاب Ben Gourion ص ١٥٣) . وكان كثيرون من اليهود كزعيمهم الاعلى بن غوريون يتمنون ، وهذا منطقي جداً ، رخيل اكبر عدد ممكن من العرب . وقد كتب واضع سيرة بن غوريون ميشيل بار زوهار ببراءة : « قد يتهمونه (بن غوريون) بالعنصرية ولكن حينئذ ينبغي ان يحاكموا كل الحركة الصهيونية التي تقوم على اساس ذات يهودية صافية في فلسطين . وان في النداءات التي توجهها مؤسسات صهيونية=

في دولة قومية يهودية . واني اوافق على ان ارادتهم في التسلط على العنصر العربي هي أقل من ارادتهم في الاستيلاء على أرض . وبما انه مامن أحد يستطيع ان يدعي أن الأرض المذكورة قد منحهم اياها العرب عن طيبة خاطر فالقضية اذن هي جهد ناجح بذلوه لفرض ارادتهم على الآخرين . انني لاأريد أن اطيل في بسط موقف العرب في اسرائيل واكتفي بأن أرد القارىء الى الكتاب الجميل المعقول الموزون الواضح كتاب ولتر شوارتز الذي اتيناعلى ذكره [1] . من المؤكد أن الاغلبية اليهودية ، رغم التخفيف من التدابير المطبوعة بطابع التميز العنصري ، تفرض شريعتها على العرب وقد كتب عالم اجتماعي اميركي نابه يقول : « ان الانطباع السائد هو ان عطف العرب الاسرائيليين متجه بأكثره الى أبناء جلدتهم العرب وان ولاء العرب لايتجه الى الأغلبية اليهودية التي تحكم حالياً بل بالحري الى ابناء جلدتهم في مصر والاردن الذين يعدون بتحريرهم . وقد يكون

= متعددة للعرب طالبة منهم الا يبرحوا البلاد وان يندمجوا في الدولة اليهودية شحنة كبيرة من النفاق » (Ben Gourion) . لاسبيل الى الاتيان باحسن من هذا القول .

الاورادور قرية فرنسية في مقاطعـــة فين ذبح الالمان في ١٠ حزيران ١٩٤٤ سكانها جميعاً وعددهم ١٤٠٥ واحرقها .

(١) كتاب ولترشوارتز « The Arabs in Israël » لندن فابر وفابر ١٩٥٩

هنالك الكثير من الاستثناءات ولكن هذا الموقف يشمل مؤكداً غالبية العرب [1] . وهذه نتيجة طبيعية للوضع ويبدو ان من العسير ان تكون على غير ذلك . فعرب اسرائيل ، كالعرب الفلسطينيين الذين فروا من اسرائيل ، هم في وضع لم يقبلوا به بل فرضته عليهم اليشوف بالقوة [2] . ومهما تكن المبررات التي يمكن ان توجد لهذا العمل فالواقع نفسه لاسبيل الى ان ينكره احد .

ننهي أختم كلامي باشارة موجزة الى الحجة العربية التي تقول ان اسرائيل ، زيادة على دورها التسلطي المحلي وعلى الطبيعة الاستعمارية تكوين دولتها من الناحية التاريخية ، تشترك ضمن نطاق النظام العالمي الموصوف بالامبريالي في استغلال العالم الثالث اقتصادياً الى جانب الدول الاوربية الاميركية المصنعة واليابان . ودراسة هذه المشكلة تتطلب مجالا اوسع ومعلومات دقيقة اكثر . واذا اقتصرنا على العموميات بدا لنا من البدهي ان تفوق اسرائيل التقني يفتح امامها امكانات الضغط الاقتصادي على الاقتصادات المتخلفة . ولكن صغر

(١) كتاب الكس وينغرود « Israel, Group Relations in a New Society » لندن . داربل مل ١٩٦٥ معهد علاقات الاجناس ، ص ٧٠ ومابعدها .

(٢) ان ضم الضفة الغربية غير الاسرائيلية للملكة الهاشمية الاردنية، هذا الضم الذي وضع عرب فلسطين تحت حكم لايرغبون فيه، هو نتيجة (ترضى عنها اسرائيل) لإعلان الدولة اليهودية والحرب عام ١٩٤٨ .

رقعتها ، بالمقابل ، وصعوباتها مع جيرانها المباشرين ، وربما تبعيتها الخاصة الاقتصادية للدول الرأسمالية الاوربية الاميركية تقلل كثيراً من الامكانات المذكورة . لقد بدت اسرائيل بشكل عام كحليفة للدول الامبريالية بناء على اختيار سياسي . ويمكن القول ان هذا الاختيار قد فرضته الى حد بعيد ظروف تشكيل وولادة الدولة . وكان ذلك نتيجة حتمية تقريباً للاختيار الصهيوني الاساسي بل أن هذا الاختيار ، على الأقل ، قد جعل من العسير اتخاذ موقف آخر . ويجمل القول ان اسرائيل تبدو حقاً ، كما أرادها هرزل ، رأس جسر للعالم المصنع الرأسمالي وسط عالم متخلف .

اما حق اسرائيل في الاستمرار بتشكيل مجتمع قومي على الأرض التي استولوا عليها بهذه الطريقة فهذا خارج عن المشكلة المطروحة هنا . ان الحقوق الناتجة عن استصلاح الارض المحتلة وعن العمل المبذول في هذا السبيل وعن التضحيات الشخصية التي تحملت لهذه الغاية هي الحقوق الوحيدة التي يمكن التلويح بها بطريقة مقبولة. ولكن ليس لذلك أية علاقة بالتعريف الاستعماري لعملية الاستكان. وكل الامم التي لاينكر عليها أحد حقوقها في ان تكون حيث هي ، قائمة ، لها أصل استعماري نوعاً ما . وأصل « الأقدام السوداء » الجزائريين الاستعماري لم يحل دون اعتراف جيش التحرير بحقوقهم ولم يتأت رحيلهم عن اقصائهم بل عن عجزهم عن التلاؤم مع الوضع الجديد او عن رفضهم لهذا الوضع .. وكذلك فليس هنالك من

يتحدث عن طرد بيض افريقيا الجنوبية بسبب أصلهم الاستعماري ، انهم يطالبونهم فقط بالتعايش مع الزنوج على قدم المساواة . اما ان يؤلفوا عنصراً مستقلا فصعب . ويمكن بعض الاحيـــان الحصول بالقوة على اعتراف العنصر الاصلي بهذا الاستقلال الذي يجعله مر الزمن بالتالي مشروعاً . غير انه لايمكن الادعاء بالخروج من السياق الاستعماري الا اذا قبل العنصر الاصلي بالتنازل بعد مفاوضات تجري لهذه الغاية .

الخاتمة

اظن انني قد برهنت في الأسطر السابقـــة ان تشكيل دولة اسرائيل على ارض فلسطين هو نتيجة لتطور يمكن ادراجه تماماً في حركة التوسع الاوربية الامريكية الكبرى في القرنين التاسع عشر والعشرين للاسكان او للسيطرة اقتصادياً وسياسياً على الشعوب الاخرى . فالموضوع هنا موضوع تشخيص اكيد على كل حال . ولم استعمل هذا القدر من الكلمات للنطق به الا بسبب جريمة الجهود اليائسة التي بذلت لاخفائه . المقصود هنا الوقائع . اما ما يتعلق بالتعابير فيبدو لي ان تعبير التطور الاستعماري جد موافق بالنظر لتوافقه الاكيد مع الظواهر التي اتفق على تسميتها بهذا الاسم . ولكن هذه قضية من فقه اللغة .

ومن المؤكد جداً انه تطور استعماري له بعض السمات الخاصة ككثير غيره على كل حال . فقد تم فيه اسكان عامرين خلافاً لحالة الهند وغرو ينلند مثلاً . ولم يكن الوطن الام ارض العامرين الاصلية ، وهذا ما حدث في جزيرة موريس مثلاً . وقد حمل السكان الاصليون بمعظمهم على الارتحال وهذا مازال يهنود انكلترا الجديدة ودام طويلاً .

انهم لم يصبحوا جميعاً في حالة تبعية اقتصادية مباشرة للعامرين ولكن من بقي منهم داخل اسرائيل اصبح في حالة تبعية سياسية بينافرض ترسخ العامرين وتشكيل الدولة على الآخرين مصيراً غير مستقل .

ان هدف التعاريف هو تبرير (السمات étiquettes) بحرصها على ان تكون محيطة نوعاً ما حسب الوقائع والاشياء التي يرادتناولها. ومن الممكن بلا ريب ، ان نجد تعاريف للاستعمار لاتشمل حالة اسرائيل الخاصة . فأحد تعاريف كلمة « مستعمرة Colonie » في معجم لاروس الكبير وهو « ارض محتلة تديرها امة من خـــارج حدودها وتبقى مرتبطة بالبلد الحاكم بروابط وثيقة »لايناسب أبداً. والتعريف الآخر : « اجتماع اشخاص تركوا بلادهم ليحتـــلوا بلداً آخر » هو على العكس جد مطابق . و كلمة بيشوف العبرية الرائج استعمالها بين اصحاب العلاقة قد فسرت في القاموس العبري الفرنسي للمالح كما يلي : (بلد آهل ، مستعمرة ، مقاطعة آهلة ، سكان ، ... ، استعمار » .صحيح انهم كانوا يرجعون بتفكيرهم في هذه التعاريف الى المستعمرات بالمعنى اليوناني خصوصاً. غير ان تعريفاً ينظر الى الزمن الحالي كتعريف كيبه ـ فلاماريون (مستعمرة = « بلد اجنبي مستذل ، بوجه عام ، بحكم شرعـــة الفتح وتابع سياسياً واقتصادياً للفاتح ») يناسب جداً . واعمق من ذلك ما انتهى اليه احد علماء الاجتماع بعد ما استعرض كل الحالات المعروفة : « يمكن التحدث عن الاستعمار حيثما يكون الاحتلال مع التسلط ولمجرد حدوثها وحيثما

توجد هجرة وتشريع ولمجرد وجودهما [١] » . ان اليهود الذين اجتذبتهم الصهيونية قد هاجروا الى فلسطين ثم هيمنوا عليها . لقد احتلوها فعلاً وسنوا التشريعات لتسويغ هذا الاحتلال قانونيـــاً . كل عناصر الاستعمار متوفرة .

ماهي النتائج التي تترتب على هذا التشخيص ؟ التبشير بالحرب المقدسة ضد الدخلاء وطلب اجلائهم بالقوة وقـذفهم في البحر باسم الضمير العالمي الذي لم يتوصل الى ادانة الاستعمار إلا متأخراً جداً ؟ وصمهم في اعين العالم كله كمجرمين ؟ مطالبتهم بأن يأنوا حفاة والحبل في عنقهم ليتوسلوا بأن تغتفر لهم خطيئتهم الأصلية ؟

ان برهاني الذي يقتصر على الوقائع لايتناول بحكم الضرورة نتائج من هذا النوع. انه يترك خارجاً ميدان الاحكام ورؤى المستقبل السياسية والالتزامات الممكنة . ولكنني مع ذلك ابيح لنفسي ، والآن فقط ، بأن ادلي هنا برأيي . ان تحديد سياسة العرب الذين أوذوا احيال اسرائيل يعود اليهم . ولايبدو لي ان دور الآخرين هو دفعهم الى الحلول العسكرية . لقد ولّد الاتجاه النضالي الثوري

---

(١) كتاب رينه مونيه : Sociolgie Caloniale. (1) Introduction à l'ènde du Contact des races باريس . دومات–مونكر ستيان ١٩٣٢ ص ٣٧ و ص ٣١ . للملاحظ على كل ان الصهاينة ، كما يبدو من النصوص المذكورة اعلاه قد ألفوا استخدام الفاظ استعماري ومستعمرات في عناوين مؤسساتهم وفي نصوصهم الرسمية الخ... للدلالة على مشاريعهم وبدون تحرج.

ردود فعل غريبة . ففهم وافهام مشاعر الثورة عند شعب أو طبقة تصارع ، ومقاومة الخط المرائي الذي يدين باسم الاخلاق العالمية اعمال المضطهَدين الثائرين متناسياً ثقل الاضطهاد وجرائم المضطهِد شيء ، وتحريض المضطهَدين ، من ملجأ امين عموماً ، على اختيار الحل الدموي من بين كل الحلول شيء آخر . ومع مجازفتي لأن اتعرض مرة اخرى للتعيير بأنني انساني بالمعنى السيء ، اعلن انني افضل ، ما امكن ، الحلول غير الدموية . وانني لا اعترف لنفسي بالحق في ان أبشر من برجي العاجي بالانتقام والقتل .

ليس العامرون والمستعمرون وحوشاً بوجوه بشرية عجيبة التصرفات كما يُعتَقَد غالباً بعد قراءة مثقفي اليسار . انني مناهض للاستعمار وللعنصرية ولكنني لا استطيع لهذا السبب ان اعرض عن تفسير الاستعمار والعنصرية بعوامل من اكثر العوامل الاجتماعية والسيكولوجية انتشاراً وابتذالاً لايمكن لاحد ان يؤكد أنه معصوم عنها . وليس الانتساب فعلاً الى رهط استعماري هو الجريمة التي لانوصف ولا تغتفر كما يتصورون في مقاهي شارعي سان جرمان وسان ميشيل . وأي انسان براء من ذلك ؟ ان الزمن الذي ينقضي منذ عملية الاغتصاب هو وحده الذي يبدل . والضمير الانساني يقبل بعد وقت قصير أو طويل بالتقادم . ان التاريخ حافل بحوادث الامر الواقع : احتل المستعمرون البريطانيون ايرلندا الكاثوليكية واستعمروا (الستر ulster) من عهد كرومويل . ولم يشمل

الاستقلال الذي منح عام ١٩٢١ (الستر) التي بقيت بروتستانتية وبقيت الاقلية الكاثوليكية فيها تتعرض للتمييز الطائفي . وقد أقسم الايرلنديون بألا يعترفوا أبداً بهذا الاقتطاع من وطنهم . انه اقتطاع ظالم ، بلا ريب ، حصل بالقوة ودعم بالقوة . وأخيراً وذات يوم جميل من شباط ١٩٦٥ اعترفوا بوجود (الستر) وقام الرئيس الايرلندي بزيارة احتفالية للفاست (١) .

ويهود اسرائيل هم ايضاً أناس كالآخرين . لقد صنع بعضهم ايديولوجية وهمية ونذروا انفسهم لها وضحوا بكثير من الجهود والحيوات البشرية . وليسوا وحدهم في ذلك فعديدون هم الذين تألموا كثيراً ولم يقابلوا حقوق الآخرين وآلامهم الا بالاستهانة . وكثيرون منهم قصدوا هذا البلد لأن فيه خشبة النجاة التي وصفوها لهم . من المؤكد انهم لم يقوموا بتحريات حكيمة ليعلموا ما اذا كانوا محقين في ذلك حسب الاخلاق الكنتية أو الاخلاق الوجودية . ومن العبث ايضاً ان نتعي عليهم ذلك . ان المستقبل متوقف بمعظمه على ميزان القوى ومتوقف بجزء منه على مايتوصل اليه من وعي لاساس المشكلات . وهذا وحده مايبرر هذا المقال .

---

(١) راجع المقال الذي بسطت فيه هذه البينات « Israël, une lutte de libération nationale ? » في مجلة (Partisans) العدد ٢٠ حزيران — آب ١٩٦٥ ص ٣٥ — ٤٠

ان وعي الطبيعة الاستعمارية لدولة اسرائيل هو البدء في ان نفسر لماذا أسهم ضغط الأحداث الى هذا الحد في دفع اسرائيل الى معسكر الدول الغربية ولماذا يتطلب الاتجاه اتجاهاً آخر من العناصر التقدمية في اسرائيل جهوداً بطولية . ان في ذلك خصوصاً تفهما للردود العربية وردود شعوب العالم الثالث الموجودة في الموقف نفسه . ان الذين يصنفون كل الحركات وكل النظم العربية بشكل آلي كفاشية لأنها فقط تقاوم اسرائيل يشيعون مفهوماً خاطئاً عن القضية ومشوماً جداً كما ان الذين يقتصرون على خرافة حقد العرب غير المبرر على الاسرائيليين او على موضوع الاسطورة الميكيافيلية يضللون ويضللون. واذا كان هنالك حقد يتجاوز في الغالب الحدود واذا كان الحكام والايديولوجيون يبنون اساطير مثيرة حول الواقع الفلسطيني فهم انما يفعلون ذلك على أساس مسلمة موضوعية تقع مسؤوليتها على القادة الصهيونيين وهي استعمار ارض غريبة (١) . ان الحكم بادانة ثورة

(١) انه اختلاف رئيسي عن حركة مناهضة السامية الاوربية التي تقوم فيها اسطورة عداء السامية اما على اتهامات لاأساس لها أو على نتائج وضع فرض على اليهود . كانت الاسطورة تصوغ اتهامات وهمية تخلع هي وحدها عليها المعاني . واذا كانت هذه الاتهامات على جانب من الحقيقة فانها كانت تنبع لامن ارادة الجماعات اليهودية الحرة بل من الوضع الاجتماعي الذي وضعوا فيه بالقوة (كمزاولة الربا مثلا) . اما مناهضة العرب للصهيونية فقد تمت، على العكس انطلاقاً من تهمة واقعية جداً (وان ارادوا =

العرب ضد وضع استعماري ادانة اخلاقية جائر لأحد انصار اللاعنف وان اقل تماسك في التفكير يمنع ان توجه مثل هذه الادانة الاخلاقية من مناهض للاستعمار؛ ان بامكانه على ابعد حد ان يرى هذه الثورة غير ملائمة في هذه الآونة .

ويستنتج من ذلك ان عقد الامال على نظام اجتماعي جديد في البلدان العربية للقبول باسرائيل انما هو وهم خطر . ولنقل بدون مواربة وعلى مافي ذلك من ايلام واغضاب لنمطيي اليسار الذين يعتقدون ان الثورة الاجتماعية تحل كل المشكلات . فليس للمشكلة الاسرائيلية العربية « حل ثوري » . فخلق اسرائيل انما كان اهانة للعرب كشعب ، ولا يستطيع اي نظام ان يقبل بها راضياً . قد تجبر الظروف السياسية الدولية والداخلية يوماً على الاعتراف باسرائيل ولكن ذلك لن يكون على اساس ايديولوجية تقبل بصواب الاستعمار الاسرائيلي ، وخلافا لذلك فان اقرب النظم الى الاشتراكية هي التي بدت اكثر تشدداً . ومن يعتقد العكس يبرهن عن جهل عميق بالاوضاع المحلية اوعن انه مضلل الى حد بعيد بالهوى الايديولوجي . ان اضطرابات الاردن اثر الغارة الاسرائيلية

= ان يبرروها او يسوغوها) من وضع خلق بملء حرية الجماعات اليهودية القوية والتي تعلن انها تمثل اليهود جميعاً . وهذه التهمة الواقعية وحدها تعطي شيئاً من المعنى لاساطير اللاسامية التي يسوقونها بعض الاحيان لتفسيرها وبدون هذه التهمة تفقد هذه الاساطير كل قوة .

الانتقامية في منطقة الخليل ، تلك الاضطرابات التي تستعر وانا انهي هذه المقالة ، تدل تماماً على مخاطر التفسير المألوف للعداء العربي لاسرائيل . كيف يستطيع من يفسرون هذا العداء كنتاج مصطنع للحكومات والنظم الفاشية ، ان يؤولوا عمق القضية الفلسطينية الذي تكشف في هذه الحوادث ؟ و كيف لايرون ان تأويلهم يلتقي مع التفسير الذي يبرر فيه الدول الاستعمارية قمعها لحركات التحرر الوطنية ؟ وحكومة ليفي اشكول قد اسقطت من حسابها ، كما يبدو ، احتمال قيام حركة كهذه وجرتها الخرافات الصهيونية نفسها ، بعدماوقعت ضحية لها ، الى تزوير مسلمات المشكلة المطروحة عليها ، انها ظاهرة كلاسيكية ولكن خطرة .

من الممن ان تكون الحرب هي المخرج الوحيد من الوضع الذي خلقته الصهيونية . واني اترك للآخرين امر الانتهاء بذلك . ولكن اذا كان هنالك من احتمال في ان نرى يوماً حلاً سلمياً فلن يتوصل اليه بالقول للعرب ان من واجبهم ان يصفقوا للفاتحين لأن هؤلاء هم اوربيون أو في طريقهم الى ان يصبحوا اوربيين او لأنهم « متطورون » أو لأنهم ثوريون اشتراكيون (بالقوة !) وأقل من ذلك ، لأنهم فقط يهود ! ان اقصى مايمكن طلبه منهم هو الاذعان لوضع سيء وانهم ، اذا فعلوا ، يفيدون من اذعانهم . وليس من السهل ان تحصل من المغلوب على ان يذعن لهزيمته ولا يتيسر لك ذلك باعلانك بصخب كم كنت محقا بجلده . ان الأصوب بوجه عام أن تقدم له تعويضات . ويمكن لمن لم يؤلمهم الصدام (بل يجب عليهم كما اظن) ان يبشروا بالعفو عن الاهانات . ومؤهلاتهم للمطالبة بذلك قليلة

جدول تصويب كتاب « اسرائيل ، واقع استعماري »

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١١	٧	جماعية	مشاعيه
١٦	٦	المثالية	الثابتة
١٨	١٤	المعتاد ،	المعتاد)
٣٠	١	تقوية	تقوية
٦٦	١٣	، لانه شئنا أم ابينا،	لانه ، شئنا أم ابينا
٩٠	٩	اليود	اليهود
٩٩	١	ولاؤهما في اسرائيل؟	ولاؤهما في اسرائيل ،
١٠٦	١٤	، كان مصادرات الاراضي	وكانت مصادرات الاراضي
١٠٦	١٥	استثنائية	استثنائية
١١٣	٩	اتكوين	لتكوين
١١٧	٩	التاريجية	التاريخية

المؤسسة العربية للطباعة والنشر

مطبعة الناصر

شارع الحريري رقم ٥ – القدس

ص.ب ٢٠٠١٣

إسرائيل، واقع استعماري

مكسيم رودنسن عالم اجتماعي بارز ومستشرق ذائع يشغل حاليـاً منصب مدير الدراسات في معهد الدراسـات العليـا (السوربون) . وهو من اليهود الاحرار الذين ساءهم ان يسخر الدين اليهودي لمآرب سياسية ملتوية وراعهم ماتضمنته الدعوة الصهيونية من زيف ومغالطة وتضليل لما لحق بالعرب بسببها من ظلم واذى وتقتيل وتشريد فتعالت صرخاته تدين وتستنكر وتفضح . وهو في هذه الدراسـة يتناول حقوق اليهود التاريخية المزعومة في فلسطين ويفندها باسلوب علمي رصين فتتهاوى ثم ينتقل الى طبيعـة الصهيونية الاستعمارية وارتباطها بالحركة الامبريالية الاوربية — الاميركية فيأتي بما يثبت ذلك بشكل قاطع وينتهي الى تبرير ثورة العرب وكفاحهم لاسترجاع بلدهم السليب وحقهم المضيم .

المؤسسة العربية للطباعة والنشر
مطبعة الناصر
شارع الحريري رقم ٥ — القدس
مقابل نادي الموظفين

سعر النسخة
٩ ليرات

٢٦٧٢
٩٥٦,٩٠٤١

مكسيم رودنسن

إسرائيل، واقع استعماري

ترجمة : إحسان الحضني

مراجعة : انطون مقدسي